البابُ الأوّل

الخطاب - عصره وحياته

الفصل الأول

البيئة السياسية

رافق السلطان الخطاب الربع الأخير من القرن الخامس والثلث الأول من القرن السادس الهجريين . فشهد فى حياته الدولتين المتعاصرتين المتخاصمتين فى اليمن وهما : الدولة الصليحية بذى جبلة فى جبال السراة ، والدولة النجاحية بزبيد فى سهول تهامة . وكانت الدولة الصليحية خاضعة لنفوذ الدولة الفاطمية فى مصر ، وأما الدولة النجاحية فهى خاضعة لنفوذ الدولة العباسية . وبسبب نشاط الدعوة الفاطمية ودعاتها فى ظل الدولة الصليحية ، كانت هذه الدولة على علاقات وثيقة ومستمرة مع الخلفاء الفاطميين فى القاهرة . ولكن لم تكن إحدى الدولتين فى اليمن فى هذه الفترة قوية إلى حدّ أن تقضى على الأخرى وتوحّد بلاد اليمن تحت رايتها . بل إن الصراع الداخلى فى هاتين الدولتين قد أضعف قوتهما ومركزهما وبدأ نفوذ هاتين الدولتين يتقلص يوماً بعد يوم وأخذت أطراف الدولة تتساقط حيث استقل فيها الأمراء والسلاطين ممن فى أيديهم الحصون والمعاقل . وقد استقل السلاطين : بنو حاتم الهمدانيون فى صنعاء ، وبنو زُرَيع فى عدن ، والخَوْلانيون فى بعض الحصون فى مخلاف جعفر . وكذلك نجد الأشراف السليمانيين فى الساعد مستقلين إلى حدّ بعيد .

فالحروب والفتن والثورات التى شبّت نيرانها قد أولدت كثيراً من القلق والاضطراب . والآن نلقى نظرة خاطفة على هاتين الدولتين والإمارات المستقلة لاتصال حياة السلطان الخطّاب بها جميعاً . نقدّم فيما يأتى تلخيصاً لأهمّ الحوادث والوقائع السياسية عن الدولتين الصليحية والنجاحية ليكون عند القارئ الإلمام ، ونشير إلى المصادر المطبوعة للرجوع إليها . وأما أخبار السلاطين الهمدانيين والأشراف السليمانيين فقد جمعناها ورتبناها من المصادر المختلفة وأكثرها غير مطبوعة .

الدولة الصليحية[١]

أسّس على بن محمد الصليحى هذه الدولة سنة تسع وثلاثين وأربعمائة[٢]. وأعان ولاءه للخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وكان على اتصال وثيق ومستمرّ بالدولة الفاطمية فى مصر . وهذا الملك على بن محمد الصليحى قد طوى بلاد اليمن طيًّا وملك كافة أقطار اليمن وحصونها ومدنها وسهلها وجبلها . وامتدّ نفوذه من مكة إلى حضرموت . ويقول عمارة اليمنى فى هذا السياق : « ولم تخرج سنة خمس وخمسين وأربعمائة ، وما بقى عليه من اليمن سهل ولا وعر ولا برّ ولا بحر إلا فتحه . وذلك أمر لم يعهد مثله فى جاهلية ولا فى إسلام »[٣] . ولكن بعد اغتياله بيد سعيد الأحول ابن نجاح سنة تسع وخمسين وأربعمائة[٤] خرجت جميع جهات المملكة من حكم الصليحيين سوى حصن التعكر والعاصمة صنعاء التى كان فيها المكرّم ولى عهد الدولة الذى خلف أباه فى تلك السنة ، وهذا الملك الشاب الفارس المغوار قد استطاع بشجاعته الفائقة وعزمه الصارم وبقوّاده الأفذاذ وأتباعه الخلصاء ، قد استطاع تأديب هؤلاء الطامحين والطامعين ، وأعاد للدولة سلطانها وأملاكها . وكذلك خلّص أمه السيدة الملكة الحرّة أسماء بنت شهاب من أسر سعيد الأحول بن نجاح فى زبيد بعد بضعة أشهر فقط ، وقضى على سعيد الأحول[٥] . وفى عهده بلغت الدولة الصليحية أقصى حدودها . وبعد وفاة الملكة الوالدة أسماء بنت شهاب بصنعاء سنة سبع وستين وأربعمائة ، انتقلت العاصمة من صنعاء إلى ذى جبلة[٦] . ولكنه برغم

---

(١) على الباحث عن أخبار هذه الدولة أن يرجع إلى كتاب « الصليحيين » للدكتور حسين بن فيض الله الهمدانى وهو كتاب جامع يعتمد عليه .

(٢) الصليحيون ص ٧٣ .

(٣) عمارة / كاى ص ١٨ .

(٤) عيون الأخبار ج ٧ ص ٩٠ .

(٥) راجع الصليحيين ص ١١٣ — ١٣٢ .

(٦) عيون الأخبار ج ٧ ص ١٢٢ ، عمارة / كاى ص ٢٩ .

جهوده الجبارة فى توطيد أركان الدولة لم يستطع أن يستمرّ فى الحكم طويلا بسبب شدة مرض الفالج . فاعتكف فى حصن التعكر ، وفوّض شئون الدولة وأمورها إلى زوجته الملكة الحرّة أروى بنت أحمد الصليحى إلى أن توفى سنة سبع وسبعين وأربعمائة[١] .

فتولت السيدة الملكة الحرّة أروى أمور الدولة ، وجعلت السلطان أبا حِمْيَر سبأ بن أحمد الصليحى نائباً ومستشاراً للدولة الصليحية [٢]. فدخل السلطان سبأ فى حروب متوالية مع جيّاش بن نجاح الذى تملك زبيد من جديد بعد مقتل أخيه سعيد الأحول ، ولكن لم تستقر له الأمور فيها إلا بعد انتصاره على السلطان سبأ فى وقعة الكظائم سنة تسع وسبعين وأربعمائة[٣] . ومن هنا تبتدئ الفترة الثانية للدولة النجاحية فى زبيد . ثم نشب النزاع بين السلطانين سبأ الصليحى وعامر الزواحى ، وبعده بين السلطان سبأ والسيدة الملكة الحرّة لما خطبها السلطان سبأ للزواج . وكان هذان النزاعان من المسائل الحيويّة بالنسبة لبقاء الدولة . لذلك لم يأل الخليفة المستنصر بالله الفاطمى جهداً فى تسويتها تسوية سلمية ، فبادر فى إرسال السجلاّت مع الوفود ، فبفضل جهوده سوّى النزاعان ولم يقع أى انشقاق فى الدولة[٤].

وبعد وفاة السلطان أبى حِمْيَر سبأ بن أحمد الصليحى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة خرجت صنعاء وأعمالها من حظيرة الدولة الصليحية ، فاستولى عليها السلطان حاتم بن الغشيم الهمدانى[٥] . وأقامت الملكة الحرّة المفضل بن أبى البركات الحِمْيرى على قيادة الجيش وإدارة شئون الدولة . فحارب المفضل القبائل التى خرجت على طاعة الدولة الصليحية ، واسترجع نصف خراج عدن من آل زُرَيع[٦].

---

(١) عيون الأخبار ج ٧ ص ١٢٢ ، اطب الصليحيين ص ١٤١ .

(٢) راجع الصليحيين ص ١٤٨ — ١٥٠ .

(٣) عيون الأخبار ج ٧ ص ١٣١ — ١٣٣ ، الصليحيون ص ١٥١ — ١٥٤ .

(٤) اطب الصليحيين ص ١٥٤ — ١٥٩ .

(٥) عيون الأخبار ج ٧ ص ١٦٨ ، كفاية ص ٤٨ (ب) ، قرة العيون ص ٢٩ فى كفاية وقرة العيون أنه توفى سنة ٤٩٢ هـ .

(٦) عيون الأخبار ج ٧ ص ١٦٩ .

وفى سنة ثلاث وخمسمائة اختلف أولاد جيّاش بن نجاح فيما بينهم ، وأدّى هذا الخلاف إلى فرار منصور بن فاتك بن جيّاش من زبيد مع عبيد أبيه ولحوثهم إلى الدولة الصليحية . وتعهّدوا بدفع ربع محاصيل تهامة لمساعدتهم على عبد الواحد ابن جيّاش . فسار المفضّل بن أبى البركات إلى زبيد فى جيش كبير وملّكهم زبيد[١] . يتبين لنا من هذه الحادثة أن الدولة الصليحية لم تكن قويّة حتى تنتهز هذه الفرصة للقضاء على تلك الدولة . وفى أثناء غياب المفضّل عن التعكر ثار الفقهاء فيها واستولوا عليها بمساعدة الحولانيين . ولما عاد المفضّل من زبيد انتحر سنة أربع وخمسمائة[٢] .

وبعد وفاته خرجت بعض الجهات على الدولة الصليحية ، وبدأت الأمور تتعقّد والدولة تتفكّك شيئاً فشيئاً . لذلك أرسلت الملكة الحرّة إلى الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى فى القاهرة تطلب منه مستشاراً لمساعدتها فى تدبير شئون الدولة . وأحست الدولة الفاطمية بتسرّب الضعف إلى كيان الدولة الصليحية . فبادر الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة بإرسال الأمير الموفق على بن إبراهيم بن نجيب الدولة يرافقه عشرون فارساً منتقون إلى بلاد اليمن[٣] .

وفى خلال سنتين بلغ ابن نجيب الدولة الشأو البعيد فى إخضاع الإمارات الصغيرة وتأديب الحولانيين وكان النصر حليفه . فتحسن بجهوده وبحسن سياسته مركز الدولة الصليحية . وفى سنة خمس عشرة وخمسمائة بعد وفاة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى أمدّه الوزير المأمون البطائحى بالمال والرجال فسيّر إليه أربعمائة قوس أرمنى وسبعمائة أسود . فشجّعته هذه المساعدة وذاك النجاح فى محاربة الدولة النجاحية بزبيد سنة ثمانى عشرة وخمسمائة . وكان منّ الله الفاتكى وزيراً بها آنذاك[٤] . ولكن

---

(١) عمارة/ كاى ص ٦٩ ، كنز الأخبار ص ١٨٧ (الف) ، كفاية ص ٧٢ (الف) وقرة العيون ص ٨٦ .

(٢) الصليحيون ص ١٦٤ — ١٦٥ .

(٣) أنفر الصليحيين ص ١٦٨ .

(٤) عمارة/ كاى ص ٤٣ ، عيون الأخبار ج ٧ ص ١٨٢ — ١٨٣ .

فشل ابن نجيب الدولة فى محاولته هذه للقضاء على تلك الدولة . ثم ساءت العلاقات بين ابن نجيب الدولة والملكة الحرّة منذ سنة تسع عشرة وخمسمائة . وصادف هذا الحادث فى اليمن الحادث المماثل فى القاهرة ، وهو سوء العلاقة بين الخليفة الآمر بأحكام الله ووزيره المأمون البطائحى. فشوّهت سمعة ابن نجيب الدولة لدى الخليفة. فأرسل الآمر بأحكام الله الأمير الموفّق ابن الخياط للقبض على ابن نجيب الدولة[١].

وقد أخذت الدولة الصليحية بعد رحيل ابن نجيب الدولة من اليمن فى الانهيار والانحلال ، وفى أواخر أيام الملكة الحرّة لم تبق فى يدها إلا بضعة حصون . ولمّا توفيت سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة استولى المنصور بن المفضّل بن أبى بركات على ما كان تحت يدها . وفى سنة سبع وأربعين وخمسمائة باع المنصور بن المفضّل حصونه إلى محمد بن سبأ الزُرَيْعى . وبقيت هذه الحصون والمعاقل فى أيدى بنى زُرَيْع إلى أن استولى عليها عبد النبى بن على بن مهدى[٢].

الدولة النجاحية[٣]

كان نجاح مؤسس هذه الدولة من عبيد العبد الحبشى الحسين بن سلامة الذى تولى كفالة طفل من آل زياد . ولذلك تعرف هذه الدولة بالحبشة تارة وبالعبيد تارة أخرى[٤] . وقد استولى نجاح على زبيد وأعمال تهامة بعد انقطاع الدولة الزيادية سنة اثنتى عشرة وأربعمائة[٥] . وحينما استقرّ له الأمر ضرب السكّة باسمه

---

(١) راجع الصليحيين ص ١٦٨ — ١٧٣ .

(٢) عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٠٧ .

(٣) قد اعتمدنا على تاريخ عمارة اليمنى فى إخراج هذه النبذة التاريخية لأنه كان من معاصرى هذه الدولة . ولكن فى بعض الحوادث التى تبين فيها أخطاؤه فى تحديد السنين ، فضلنا مصادر الدعوة الفاطمية.

(٤) كان نجاح من بلاد الحبشة من بطن يقال لهم الجزايون ، كما فى عمارة / كاى ص ٦٠ ، وكفاية ص ٦٧ (الف) .

(٣) عمارة / كاى ص ١١ ، تاريخ المستنصر ج ١ ص ٧٢ ، كنز الأخيار ص ١٧٧ (الف) كفاية ص ٦٧ (الف) .

وكاتب أهل العراق وبذل الطاعة . فنعت بالمؤيد نصير الدين وفوّض إليه النظر العام على الجزيرة اليمنية . ولم يزل نجاح مالكاً لتهامة من «حلي» شمالا إلى «عدن» جنوباً وملوك الجبال تعظم دولته وتتّقى صولته ، وخوطب وكوتب بالملك حتى قتله الملك على بن محمد الصليحى بالسم مع جارية جميلة أهداها إليه سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة[١] .

ولمّا قصد الملك الصليحى زبيد سنة خمس وخمسين وأربعمائة أزال هذه الدولة فهرب بنو نجاح إلى جزيرة دهلك[٢] . وهكذا انتهت الفترة الأولى من عهد الدولة النجاحية . وفى سنة تسع وخمسين وخمسمائة اغتيل الملك على بن محمد الصليحى بيد سعيد الأحول بن نجاح لأخذ ثأر أبيه عندما كان هو فى طريقه إلى البيت الحرام[٣] . ثم ارتحل سعيد الأحول إلى زبيد حيث استقام له الأمر[٤] . ولكن بعد ثلاثة أشهر فقط زحف الملك المكرّم بن على الصليحى إلى زبيد لكى يخلّص أمّه الملكة الحرّة أسماء بنت شهاب التى أسرت إثر اغتيال زوجها الملك الصليحى من أسر العبيد . فدخل الملك المكرّم المدينة ظافراً بعد قتال مرير . وأما سعيد الأحول فهرب إلى دهلك وبعد فترة من الزمن عاد إليها . وكان الملك المكرّم يرى فيه الخطر على دولته . لذلك قام من جديد لمحاربته بعد قمع الفتن الداخلية ، وخرج من صنعاء فى غرّة شهر رمضان سنة إحدى وستين وأربعمائة قاصداً زبيد . وانتصر الملك المكرّم وهزم العبيد هزيمة منكرة وقتل سعيد الأحول[٥] .

---

(١) عمارة / كاى ص ١٢ ، ٦٠ ، كنز الأخبار ص ١٧٧ (الف) ، كفاية ص ٦٨ (الف) .

(٢) كفاية ص ٦٨ (الف) ، قرة العيون ص ٨١ .

(٣) عيون الأخبار ج ٧ ص ٩٠ ، عمارة / كاى ص ٢٢ .

(٤) عمارة / كاى ص ٦٤ ، كفاية ص ٦٩ (الف) .

(٥) عيون الأخبار ج ٧ ص ٩٧ — ١٠١ ، ١١٠ — ١١٧ . يقول عمارة اليمنى إن قتل سعيد الأحول كان فى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة تحت حصن الشعير بحيلة من السلطان أبى عبد الله التبعى (عمارة / كاى ص ٢٧ ، ٣٠ — ٣١) . ولكن هذا الرأى بعيد عن الصواب ، اطلب الصليحيين ص ١٣٢ ، وقد أورد صاحب « عيون الأخبار » بعض الأبيات من قصيدة المشيمى التى أنشدها فى مناسبة انتصار الملك المكرم على سعيد الأحول ، يقول فيها :

رمت المنايا قلب من لم يجذل ويقر عيناً بعد قتل الأحول

(عيون الأخبار ج ٧ ص ١١٧)

وأما جيّاش بن نجاح ففرّ إلى الهند ثم رجع إلى اليمن بعد مدّة من الزمن ودخل زبيد متنكراً . ولم يزل يدبّر الفتن حتى تملك زبيد . فدخل فى حروب متوالية مع السلطان أبى حمير سبأ بن أحمد ، ولم يستقر له الأمر فيها إلا بعد وقعة الكظائم التى انتصر فيها على السلطان سبأ بالحيلة سنة تسع وسبعين وأربعمائة[١] . وهكذا تبتدئ الفترة الثانية من حكم الدولة النجاحية على زبيد وتهامة .

ولما توفى جياش سنة ثمان وتسعين وأربعمائة[٢] اختلف أولاده الثلاثة . فاتك بن الهندية ، وإبراهيم ، وعبد الواحد فيما بينهم . فجرت بينهم عدّة وقائع وحروب إلى أن ظفر الفاتك بن الهندية على أخويه . وعندما توفى الفاتك سنة ثلاث وخمسمائة خلّف ابنه المنصور صغيراً ، فملكه عبيد أبيه . ولما وصل هذا الخبر إلى إبراهيم بن جياش حشد الحشود ونزل إلى زبيد فالتقى هو وعبيد الفاتك بن الهندية . وعندما خلت زبيد من عمّال الفاتك ، ثار عبد الواحد بن جياش فى زبيد وملكها . ولما رأى إبراهيم بن جياش أن أخاه عبد الواحد قد سبقه إلى الأمر توجه إلى الحسن بن أبى الحفاظ الحجورى (والد الشاعر السلطان الخطاب) وهو يومئذ بالجريب . وأما عبيد الفاتك ومولاهم المنصور بن فاتك فنزلوا بالأمير المفضّل ابن أبى البركات وبالملكة الحرة السيدة أروى فأكرمت مثواهم . ثم التزم عبيد فاتك بربع البلاد لنصرتهم على عبد الواحد . فسار الأمير المفضّل بن أبى البركات معهم ناصراً لهم ، وأخرج عبد الواحد من زبيد وملكها لهم[٣] .

من هنا انتقل زمام الأمور والسلطة إلى أيدى الوزراء من عبيد فاتك لأن من تولّوا الحكم من أولاد فاتك بن الهندية كانوا أطفالا . وأوّل من وزر منهم أنيس الفاتكى وقد دبر قتله سنة سبع عشرة وخمسمائة لأنه طغى وبغى وهمّ على أن يفتك بمولاه المنصور[٤] . ثم استوزر المنصور بعده منّ الله الفاتكى . وهو الذى كسر

---

(١) عيون الأخبار ج ٧ ص ١٣٠ — ١٣٣ قد ذكر عمارة هذه الواقعة ولكن لم يحدد السنة التى وقعت فيها . عمارة / كاى ص ٣٣ — ٣٤ .

(٢) وقيل أيضاً إنه مات سنة خمسمائة . عمارة / كاى ص ٦٨ .

(٣) عمارة / كاى ص ٦٩ ، كنز الأخبار ص ١٨٧ (الف) ، كفاية ص ٧٢ (الف) ، عيون الأخبار ج ٧ ص ١٧٩ ، وقرة العيون ص ٨٦ .

(٤) عمارة / كاى ص ٧٠ — ٧١ ، كفاية ص ٧٣ .

ابن نجيب الدولة على باب زبيد وانتصر عليه . فشمخ أنفه على الوزارة وسمت نفسه إلى الملك ، فقتل مولاه المنصور بالسم وجعل الملك لولده فاتك بن المنصور . ثم امتدت يده وعبث بالنساء من بنات الملوك وغيرهن . فدبّرت بنت معارك بن جيّاش قتله سنة أربع وعشرين وخمسمائة[١] .

ثم تولى الوزارة مُفْلح الفاتكى ، حتى قام الصراع بينه وبين القائد سرور . فاحتال سرور على إخراج الوزير من زبيد ، فلمّا خرج مفلح الفاتكى من زبيد استولى عليها القائد سرور . فجمع الوزير الجموع واستنجد بالأمير غانم بن يحيى السليمانى واشترط له إسقاط الإتاوة ولكنهما انهزما وانتصر القائد سرور[٢] .

وفى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قتل الوزير إقبال الفاتكى مولاه فاتك بن المنصور بالسم . لذلك جعلت الوزارة بيد القائد سرور الفاتكى[٣]. وقتل هذا الوزير سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وكان الذى قتله رجل من أصحاب على بن المهدى . ولم تلبث الدولة بعده إلا قليلا حتى أزالها على بن المهدى سنة أربع وخمسين وخمسمائة[٤] .

الأشراف السليمانيون

تنتمى الأسرة السليمانية هذه إلى بنى سليمان بن دؤاد بن الحسن المثنى بن الحسن السبط[٥]. ولهذا السبب يسمون (السليمانيون) وليس كما يظهر فى بادئ الأمر نسبة إلى المخلاف السليمانى[٦] الذى كانوا يحكمون فيه ، وهم من أولاد أشراف مكة

---

(١) عمارة / كاى ص ٧١ — ٧٣ ، كفاية ص ٧٤ (الف) .

(٢) عمارة / كاى ص ٧٦ — ٨٤ ، كفاية ص ٧٥ — ٧٧ .

(٣) عمارة / كاى ص ٨٤ — ٨٨ ، كفاية ص ٧٨ (الف) .

(٤) عمارة / كاى ص ٩١ ، كفاية ص ٨٠ (الف) .

(٥) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٩٩ ، اطلب شجرة النسب فى ملحق رقم ٤ .

(٦) يسمى هذا المخلاف باسم المخلاف السليمانى نسبة إلى سليمان بن طرف الذى أنشأه وخطب باسمه من سنة ٣٧٣ إلى ٣٩٣ هـ . اطلب عمارة / كاى ص ٥ ، كنز الأخيار ص ١٧٦ (الف) ، تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٦ ، وصفة ص ١١٩ — ١٢٠ .

الحسنيين ، وقبل أن نبدأ الكلام عن هذه الأسرة فى سياق كلامنا عن البيئة السياسية التى كانت سائدة أيام شاعرنا السلطان الخطاب . نرى من الضرورى أن نستعرض كيف وصلت هذه الأسرة إلى اليمن من الحجاز ، وكيف تولّت الحكم فى المخلاف السليمانى لأن هذه الحقائق ستفسّر علاقة هذه الأسرة مع الدولتين المتعاصرتين فى اليمن . وكذلك تفسر علاقة السلطان الخطاب بأشراف مكّة الهواشم .

يقول ابن خلدون[١] . إن بنى سليمان العلويين الحسنيين قد استغلّوا فرصة شيوع الفتن والثورات فى أواخر القرن الثالث الهجرى بإنشاء إمارة مستقلّة على مكّة ، وخلعوا الطاعة عن العباسيين وخطبوا لأنفسهم سنة إحدى وثلاثمائة . ولكنهم لم يستمروا فى الحكم إلا مدّة قصيرة . وفى سنة اثنتى عشرة استولى عليها أبو طاهر القرمطى . وعادت الخطبة للعباسيين فيها سنة سبع وعشرين وثلاثمائة[٢] .

وفى الصراع بين العباسيين والفاطميين لتوسيع نفوذهم على البلاد المقدسة فاز بنو سليمان كما يقول الأستاذ متز[٣] ، مرّة أخرى بالغنيمة . وخطب الحسن بن جعفر للمعزّ لدين الله الفاطمى[٤] ، واستمرت الخطبة للفاطميين إلى أن تمرّد أبو الفتوح سنة أربعمائة . وفى أثناء هذا التمرّد تولى أبو الطيب ابن عم أبى الفتوح الحكم من جانب الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى . ولكن فى سنة ثلاث وأربعمائة اعتذر أبو الفتوح إلى الخليفة الفاطمى ، فقبل عذره وعفا عنه وأعاده إلى إمارة مكة[٤] . وظلت الخطبة تقام باسم الخليفة الفاطمى إلى أن توفى شكر بن أبى الفتوح سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة بدون خلف يتولى الحكم بعده[٦]. فزال نفوذ بنى سليمان وتغلّب عليهم الهواشم برياسة أبى هاشم محمد بن جعفر بن محمد سنة أربع وخمسين

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٩٩ ، كذلك شفاء الغرام ص ٢٠٦ ، وصبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٠٠ ، صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٨ .

(٣) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٤ .

(٤) اتعاظ الحنفاء ص ١٤٥ — ١٤٦ ، صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٦٩ .

(٥) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٠٢ ، الخطط ج ٢ ص ١٥٧ ، ٢٨٨ .

(٦) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٠٢ .

وأربعمائة . فحارب بنى سليمان وأخرجهم من الحجاز[١] . فذهبوا إلى اليمن ، وأقيمت الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى . ويقول مؤلّف « شفاء الغرام[٢] » إن السليمانيين حاولوا استرجاع السلطة تحت قيادة حمزة بن وهاش بن أبى الطيب ولكنهم لم ينجحوا فى هذه المحاولة .

ويقول صاحب كتاب المخلاف السليمانى[٣] مع أنه لم يذكر المصادر التى استقى منها يقول إن حمزة بن وهاس اتصل بحكومة زبيد بعد فراره من مكة ، ولكن المنية قد عاجلته قبل أن يدرك أمنيته . وتمكن ابناه عيسى ويحيى مع اتفاق بحكومة زبيد على تولى إمارتى حرض وعثر فى المخلاف السليمانى . ثم غدر يحيى بأخيه عيسى وضمّ إمارته إلى إمارته[٤] .

ويقول الداعى إدريس[٥] عماد الدين إن جياش بن نجاح قد استنصر بالشريف يحيى بن حمزة على الدولة الصليحية فى وقعة الكظائم سنة تسع وسبعين وأربعمائة حيث انهزم السلطان أبو حمير سبأ بن أحمد الصليحى . وكان يحيى بن حمزة شاعراً ، وقد أورد الداعى إدريس قصيدته التى اعتذر بها إلى السلطان أبى حمير سبأ فيما كان من نصره للحبشة فى وقعة الكظائم حيث يقول :

وقد يعزّ علينا ما أصابكم ... منّا بغير رضا كفٍّ ولا قدَم
والله يعلم أنى يوم وقعتكم ... لم أمس إلا على جمرٍ من الندَمِ
وأن فيض دم منكم كفيض دم ... بكربلاء وثأرُ الطفّ لم يَرِمِ[٦]

---

(١) المصدر السابق ج ٤ ص ١٠٣ - ١٢٢ ، صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٧٠ .

(٢) شفاء الغرام ص ٢١١ .

(٣) المخلاف السليمانى ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٤) عند المخلاف السليمانى بعد وفاة سليمان بن طرف سنة ٣٩٣ إلى حوزة الدولة الزيادية مرة أخرى فى عهد الحسين بن سلامة ، ثم ظل ضمن قطاق الدولة النجاحية (الفترة الأولى) وفى عهد الملك على بن محمد الصليحى أصبح هذا المخلاف جزءاً من الدولة الصليحية . عمارة / كنى ٦ ، ١٨ ، ٦٠ فيبدو لنا أن السليمانيين وصلوا إلى الحكم فى فترة الاضطراب الذى انتشر أثر اغتيال الملك الصليحى سنة ٤٥٩ هـ .

(٥) عيون الأخبار ج ٧ ص ١٣٣ ، نزهة الأفكار ج ١ ص ٦١ - ٦٢ ، اطلب الصليحيين ص ١٥٢ .

(٦) عيون الاخبار ج ٧ ص ١٣٤ ، نزهة الافكار ج ١ ص ٦٢ - ٦٣ .

وبعد وفاة الشريف يحيى بن حمزة تولى الحكم ابنه الأمير أبو الغارات غانم ابن يحيى . وكان يدين بالطاعة للدولة النجاحية ويحمل إليهم الإتاوة كل سنة وتبلغ ستين ألف دينار. وحينما نشبت الحرب بين الوزير مُفْلِح الفاتكى والقائد سرور ، كاتب الوزير مفلح الفاتكى الأمير غانم للمساعدة واشترط له إسقاط الإتاوة وإضافة أعمال الواديين إليه . فسار الأمير غانم إلى زبيد فى ألف فارس وعشرة آلاف راجل ناصراً للوزير مفلح الفاتكى . فكانت الدائرة على مفلح الفاتكى والأمير غانم ومن معهم[١] . وبعد وفاة الأمير غانم جدّد ابنه الأمير القاسم صلته بحكومة زبيد . وقد أزال على بن المهدى هذه الأسرة السليمانية عن الخلاف السليمانى حينما قضى على الدولة النجاحية[٢] .

بنو زُرَيع

هم من أولاد العباس بن الكرم ، وهو ينتسب إلى جشم بن يام بن أصبى بن دافع بن مالك بن جشم بن حاشد بن جشم بن حبران بن نوف بن همدان[٣]. وقد أبلى العباس بن الكرم بلاء حسناً فى قيام الدعوة الفاطمية مع الملك على بن محمد الصليحى ثم مع الملك المكرّم عند زحفه إلى زبيد ولتخليص أمّه الملكة الحرّة أسماء بنت شهاب من أسر العبيد[٤] .

ولما استولى الملك على بن محمد الصليحى على عدن كان فيها بنو معن فأقرهم لما بذلوا له من الطاعة . ولكنهم تمردوا بعد وفاة الصليحى فأخرجهم الملك المكرّم وولّى عليها العباس ومسعود ابنى الكرم[٥] . وكانا يرفعان خراجها وهو مئة ألف دينار إلى

(١) عمارة / كاى ص ٨٤ — ٨٨ ، كفاية ص ٧٥ — ٧٧ .

(٢) تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ١٢٧ .

(٣) اطلب شجرة النسب فى ملحق رقم ٣ .

(٤) عمارة / كاى ص ٤٨ ، كنز الأخيار ص ١٨٦ (الف) تاريخ المستبصر ج ١ ص ١٢١.

(٥) عمارة / كاى ص ٤٨ ، تاريخ المستبصر ج ١ ص ١٢١ عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٠٦ ، تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٤٠ .

السيدة أروى بنت أحمد الصليحية زوجة الملك المكرّم ، لأن الملك على بن محمد الصليحى كان أصدقها عدن حين زوّجها من ولده المكرّم .

ولما توفّى العباس وفى لها زريع بن العباس ومسعود، فلما قتلا على باب زبيد فى محاربة عبد الواحد بن جياش مع جيش الأمير المفضّل سنة ثلاث وخمسمائة كما سبق الذكر انتقل الأمر إلى ولديهما أبى المسعود بن زريع وأبى الغارات بن مسعود فتغلّبا على الملكة الحرّة، فسار الأمير المفضّل بن أبى البركات إلى عدن حيث جرت بينه وبينهما حروب وفى الآخر تمّت المصالحة على نصف خراج عدن[١] . ولما توفى الأمير المفضّل تغلّب أهل عدن على النصف الثانى فسار إليهم أسعد بن أبى الفتوح وصالحهم على الربع . فلما ثار بنو الزر الخولانيون فى التعكر تغلب أهل عدن على الربع ، ولم يبق للملكة الحرّة شىء فى عدن . وكذلك لم يستطع ابن نجيب الدولة على شىء فى ذلك[٢] . وهكذا استقلت عدن عن الدولة الصليحية .

ثم نشبت الحروب بين بنى زريع وبنى مسعود فغلب بنو زريع على بنى مسعود وأول من كان منهم سبأ بن أبى المسعود بن زريع الذى حارب ابن عمه على بن أبى الغارات بن مسعود فاستولى على ما كان فى يده سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة[٣] ثم تولى محمد بن سبأ الحكم سنة أربع وثلاثين وهو الذى اشترى حصون بنى الصليحى ومدنهم وهى ثمانية وعشرون حصناً ومدينة منها مدينة ذى جبلة وحصن التعكر سنة سبع وأربعين وخمسمائة من المنصور بن المفضّل بن أبى البركات[٤] . وهكذا انتقلت حصون الدولة الصليحية إلى آل الزريعى . ثم استولى على بلادهم عبد النبى بن على ابن المهدى وفى سنة تسع وستين وخمسمائة أزالهم توران شاه .

---

(١) عمارة / كاى ص ٤٩ ، تاريخ المستبصر ج ١ ص ١٢٢ ، تاريخ ثغر عدن ج ٢ ص ٧٨ - ٧٩ ، ٨٦ - ٨٩ .

(٢) عمارة / كاى ص ٤٩ ، تاريخ المستبصر ج ١ ص ١٢٢ .

(٣) تاريخ ابن خلدون / كاى ص ١١٧ .

(٤) عمارة / كاى ص ٤٩ - ٥٠ ، عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٠٧ .

سلاطين بنى حاتم الهمدانيين

لما توفى السلطان أبو حِمْيَر سبأ بن أحمد الصليحى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة فى حصن أشْيَح خرجت صنعاء وأعمالها عن المملكة الصليحية وارتفعت أيديهم عنها ، فاستولى عليها يومئذ السلطان حاتم بن الغشيم المغلسى الهمدانى[1]. وكان ناهضاً كافياً معدوداً من كملة الرجال . وتوفى فى سنة اثنتين وخمسين[2] . فولى الأمر بعده ولده عبد الله بن حاتم وكانت مدّة ولايته سنتين انتهت بقتله بالسم[3]. فولى الأمر بعده أخوه معن بن حاتم ، ولكن أنكره كبار همدان ولا سيما القاضى أحمد بن عمران بن الفضل وكان يومئذ عالم همدان . فجمع رؤساء همدان وخلعوا معناً عن الأمر سنة عشر وخمسمائة ثم حاصروه وقاتلوه تحت قيادة السلطانين هشام وحماس ابنى القبيب حتى استولوا عليها[4] .

ثم استقام الأمر لابنى القبيب . ولما توفى هشام انفرد بالأمر بعده أخوه حماس وبعد وفاته فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة ولى الأمر ولده السلطان حاتم بن حماس وكان أعظمهم رياسة وأقواهم شوكة[5] . وقد اختلف إخوة السلطان حاتم بن حماس بعد وفاته وافترقت آراؤهم حتى اعتزلهم أهل صنعاء .

وفى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة اجتمعت همدان وقصدت السلطان حاتم بن أحمد بن عمران بن الفضل اليامى . فأوكلت إليه تبعة القيام بالأمر ثم دخل صنعاء واستولى عليها[6]. وفى أيامه ظهر الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان فاستولى على صعدة ونجران والجوف والظاهر . فخرج لحرب السلطان حاتم بن أحمد فى

---

(١) عيون الأخبار ج ٧ ص ١٦٨ ، ٢٣١ ونزهة الأفكار ج ١ ص ٧٩ وفى كفاية أن السلطان سبأ توفى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، كفاية ص ٤٨ (ب) .

(٢) كفاية ص ٤٩ (الف) ، قرة العيون ص ٣٢ .

(٣) كفاية ص ٤٩ (الف) .

(٤) كفاية ص ٤٩ (ب) ، قرة العيون ص ٣٢ .

(٥) المصدران السابقان .

(٦) كفاية ص ٥٠ (الف) ، عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٣١ .

سنة خمس وأربعين وخمسمائة فانضمت إليه قبائل حضور ومذحج وخولان ، وغيرها . فانكسرت همدان وانهزم السلطان حاتم بن أحمد . ثم عفا الإمام عن السلطان حاتم وأكرمه . وبعد فترة قصيرة جمع السلطان حاتم فرساناً من همدان وحارب الإمام وعاد إلى صنعاء واستمرّ له الأمر حتّى توفي سنة ست وخمسين وخمسمائة[١] . وولي الأمر بعده ابنه علي بن حاتم ، ولم يزل مسيطراً على معظم اليمن الأعلى حتّى أزاله توران شاه سنة تسع وستين وخمسمائة[٢] .

---

(١) كفاية ص ٥٠ (الف) ٥١ (الف) ، نزهة الأفكار ج ١ ص ٨١ قرة العيون ص ٣٤–٣٥.

(٢) نزهة الأفكار ج ١ ص ٨٢ ؛ قرة العيون ص ٣٥ .

البيئة الاجتماعية والدينية

البيئة الاجتماعية

كان المجتمع اليمنى فى هذا العصر يتألّف من العنصرين العربى والحبشى . وكان الأحباش فى تهامة وخاصّة فى زبيد ونواحيها. وتمثل الدولة النجاحية بزبيد هذا العنصر الحبشى . وتمثّل الدولة الصليحية ذلك العنصر العربى . وكان المجتمع طبقيًّا منقسماً إلى طبقات متعدّدة وهى الحكام والأمراء والجند والشعب من عمال وزراع وصناع وتجار . وكانت طبقة الحكّام من الملوك والسلاطين والأمراء والقوّاد تمثل الطبقة الأرستقراطية أو الطبقة العليا فى المجتمع . وفى كلتا الدولتين كان نظام الإقطاع رائجاً . حيث يتولّى حكم المدن والحصون والمخاليف رؤساء القبائل الأرستقراطية مثل الصليحيين والزواحيين واليامين فى الدولة الصليحية[1] . فأخذ نفوذ هذه القبائل يزداد فى أيام ضعف الدولة الذى أدّى إلى روح التذمر وامتدت أيدى بعض الولاة الطامعين إلى الشعب بالظلم والبغى . وكان النظام القبلى منتشراً فى أكثر الجهات ، فى الجبال والقرى والأرياف حيث تجمع الوشاجة والقرابة أفراد القبيلة وبطونها الكثيرة تحت قيادة شيخ القبيلة .

وكانت الزراعة قوام المجتمع ويتكوّن جمهور المجتمع من الفلاحين . تعدّ سهول تهامة والوديان فى جبال السراة من المناطق الزراعية الخصبة . واشتهرت اليمن بزراعة العنب . كذلك توجد الصناعات المختلفة فى المدن والأرياف مثل نسيج الأقمشة وغيرها . وكان للأسواق رواج كبير حيث يجتمع الناس من المناطق المجاورة والبعيدة ببضاعتهم ويتسوّقونها .

وقد شاع الترف والبذخ فى قصور الملوك والسلاطين حيث كانت الخيرات تتدفق من المناطق المختلفة . ومن مظاهر هذا الترف الزائد كثرة الجوارى الجميلات والمغنيات فى قصور الدولة النجاحية بزبيد خاصة . وقد أصبحت الجوارى من لوازم

---

(١) الصليحيون ص ٢٣٢ .

القصور ومجالس الغناء والطرب والشراب فى الفترة الثانية من الدولة النجاحية حيث كانت السلطة فى أيدى الوزراء . ويقول عمارة اليمنى[١] ، كان لمنصور بن فاتك ولأبيه فاتك بن جيّاش وغيرهما من آل نجاح أكثر من ألف سريّة ، وبسبب الجوارى والخمر انتشر الفسق والفجور أيضاً . واتخذ الوزير منّ الله الفاتكى من سرايا المنصور بن فاتك اللائى يزيد عددهنّ على ألف سريّة ، قد اتخذ منهنّ مسرحاً لفجوره ولم تسلم منهن إلا عشر من حظايا المنصور بن فاتك . وامتدّ فجور هذا الوزير إلى بنات مواليه ، فاحتالت ابنة معارك بن جيّاش وقتلته بالسمّ[٢] .

وكان للمرأة فى ذلك المجتمع قسط وافر من الحريّة مما دعا إلى تدخّل بعض النساء فى شئون الدولة ، مثل الملكة الحرّة أسماء بنت شهاب[٣] زوجة الملك على ابن محمد الصليحى ، والملكة الحرّة أمّ فاتك بن المنصور (جارية المنصور ابن فاتك)[٤] . وقد تولت الملكة الحرّة أروى بنت أحمد الصليحية زوجة الملك المكرّم الصليحى تدبير أمور الدولة الصليحية من سنة سبع وستين وأربعمائة إلى أن لبت نداء ربها سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة . وكان يقال لها بلقيس الصغرى لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها للملك[٥] . ويصفها عمارة اليمنى[٦] أحد معاصريها ، أنها كانت قارئة كاتبة تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ ، ولها هوامش على الكتب تدلّ على معرفتها الغزيرة . ويقول مؤرّخ الدعوة[٧] إنها كانت متبحّرة فى علم التنزيل والتأويل والحديث الثابت عن الأئمة والرسول « صلعم » . وكان الدعاة يتعلمون منها من وراء الستر ويأخذون عنها ويرجعون إليها .

وقد اضطربت الأحوال الاجتماعية فى هذه الفترة بسبب الحروب والفتن والثورات .

---

(١) عمارة / كاى ص ٧٢ .
(٢) عمارة / كاى ص ٧٢ — ٧٣ ، كفاية ص ٧٤ .
(٣) الصليحيون ص ٦٦ — ٦٧ .
(٤) عمارة / كاى ص ٧١ — ٧٢ .
(٥) كفاية ص ٤١ (ب) ، قرة العيون ص ٤٨ .
(٦) عمارة / كاى ص ٢٨ .
(٧) عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٠٧ .

البيئة الدينية

كانت بلاد اليمن فى هذا العصر مسرحاً لمذاهب شتى ومتباينة . فيها أهل السنة والجماعة والشيعة الفاطمية والزيدية والخوارج وغيرها . وقد تبعت هذه الطوائف الدينية الدول والأسر الحاكمة مدًّا وجزراً . فأهل الدعوة الفاطمية كانوا يتمتعون بتأييد الدولة الصليحية . وكانت الدولة النجاحية من مؤيدى مذهب أهل السنة والجماعة . وكانت الدولة الصليحية برغم مذهبها الرسمى الفاطمى متسامحة إلى حد بعيد مع رعيتها السنية التى يتألف منها معظم المجتمع[١] .

وقد وقفت السيدة الملكة الحرّة أروى بنت أحمد الصليحية أوقافاً جليلة القدر لتدريس صحيح البخارى[٢] .

ولكن الفقهاء والعلماء من أهل السنة والجماعة كانوا يثيرون الجماهير على أهل المذهب الفاطمى وينسبون إليهم تحليل الحرام وتحريم الحلال . وقد بلغ حقد الفقهاء إلى درجة أنهم أخرجوا حظايا الأمير المفضّل بن أبى البركات بعد أن ثاروا فى غيابه واستولوا على حصن التعكر . وقد أخرجوا حظاياه فى أكمل زىّ وأحسنه وجعلوا بأيديهن الطارات وأطلعوهن على سقوف القصور بحيث يشاهدهن المفضّل . وكان المفضل أكثر الناس غيرة وأنفة فمات فى تلك الليلة[٣]. ولهذا السبب المذهبى قد اشتدّ الصراع بين هاتين الدولتين .

وقد انتشر المذهب الزيدى فى اليمن بعد مجىء الإمام الهادى إلى الحقّ يحيى ابن الحسين إلى اليمن من الحجاز سنة ثمانين ومائتين حيث استولى على صعدة ونجران . وكانت مدينة صعدة مركزهم . وهؤلاء الأئمة الزيديون أثاروا الفتن والاضطرابات فى عهد الدولة الصليحية . وكانوا ينافسون الخلفاء الفاطميين فى الإمامة والخلافة .

---

(١) أطلب الصليحيين ص ١١٠ .

(٢) الصليحيون ص ٢٣٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٦٤ – ١٦٥ .

وقد أعلنت الدولة الصليحية الدعوة الفاطمية فى مملكتهم. فاحتكوا بالصليحيين برغم التشيع المشترك بينهم[١] . قاتل الملك على الصليحى الإمام أبا الفتح الديلمى وقتله سنة أربع وأربعين وأربعمائة . وبعد قتل الإمام الديلمى لم يظهر أى إمام ولكن ثوراتهم لم تخمد وظلت تتتابع . وخرج بعض الأمراء على الصليحيين ولكنهم انهزموا[٢] .

ثم ظهرت دعوة الإمام أبى طالب الصغير سنة ثلاث وخمسمائة فى ديلم واستجاب له كثير من الناس فى صعدة ونجران . ويبدو لنا من شعر السلطان سليمان أنه أى أبى طالب الصغير اشتبك مع والد شاعرنا السلطان الخطاب بن الحسن بن الحفاظ الحجورى[٣] . وفى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ادّعى الإمامة المتوكل على الله وبعد أن استولى على صعدة ونجران زحف إلى صنعاء وكان بها يومئذ السلطان حاتم بن أحمد اليامى . فدخل المدينة منتصراً . ولكنه أخرج عنها بعد فترة من الزمن . وانضمت الزيدية تارة إلى الدولة النجاحية وتارة إلى الأشراف السليمانيين لمحاربة الدولة الصليحية التى تمثل المذهب الفاطمى .

خرجت اليمن العليا من نفوذ الدولة الصليحية فى أيامها الأخيرة حيث كانت توجد مراكز الدعوة الفاطمية . ثم انقسمت هذه الدعوة الفاطمية فى اليمن بعد سنة أربع وعشرين وخمسمائة إلى قسمين : الدعوة الطيّبية والدعوة الحافظية. والدولة الصليحية تمثل الدعوة الطيبيّة وبنو زُرَيْع فى عدن يمثلون الدعوة الحافظية[٤] .

وكان إعلان الدعوة الطيبية ، باسم الإمام المستور أبى القاسم الطيب بن الإمام الآمر ، انفصالا واستقلالا عن مركزها فى القاهرة . فدخل أهل الدعوة الفاطمية فى هذه الظروف الراهنة فى صراع فيما بينهم .

كذلك كانت توجد فى أعمال صنعاء وزبيد جماعة الأباضية من الخوارج[٥] . ويبدو لنا أنهم تسربوا إلى اليمن من عُمان حيث كانوا هنالك . ودخلت الدعوة

---

(١) الصليحيون ص ٢٣٦ .
(٢) اطلب ملحق رقم ٤ للأئمة الزيديين .
(٣) سيأتى ذكره فى الفصل الآتى عند أسرة الشاعر .
(٤) راجع الصليحيين ص ١٨٢ — ١٩٢ .
(٥) تاريخ المستبصر ج ٢ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

الفاطمية الحرب معهم أيضاً فى شمال اليمن . وقد أشار السلطان الخطاب إليها فى شعره[١] . وبمرور الزمن ازدادوا قوّة ولا سيما فى النصف الأول من القرن السادس حيث ظهر على بن مهدى الخارجى فى سواحل زبيد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة واستفحل أمره ، وحالفه أهل الجبال والبوادى . ثم ارتفع إلى حصن الشرف لبطن من خولان عندما انضمّت هذه القبيلة إليه . وكان يشن الغارات على تهامة ويعمل لإرهاب الناس وهو الذى دبّر قتل القائد سرور ، فاستولى على الدولة النجاحية . ثم أزال ابنه عبد النبى بن على المهدى جميع الدويلات والإمارات واستولى على اليمن أجمع حتى قبض عليه توران شاه سنة تسع وستين وخمسمائة[٢] .

---

(١) اطلب ديوان القسم الثانى ١٩/٦ .

(٢) اطلب أخباره فى عمارة / كاى ص ٩٢ ، تاريخ ابن خلدون / ذى ص ١١٨ وكفاية ص ٨٠ .

البيئة الثقافية

يعدّ هذا العصر من أزهى العصور التى عاشتها اليمن فى نشاطها الأدبى والعلمى برغم الحروب السياسية والفتن الدينية التى نشبت حيناً بعد حين . وكان الملوك والسلاطين والأمراء يشجعون الشعراء والأدباء والفقهاء والعلماء ويجزلون لهم العطايا السنية والهدايا الفاخرة ويبالغون فى إكرامهم .

نشاهد فى هذه النهضة الأدبية والعلمية نزعات مختلفة كما لاحظنا النزعات السياسية والدينية المتعدّدة فى تلك البيئة . فكان علماء الدعوة الفاطمية يلقون الحفاوة البالغة فى ظلّ الدولة الصليحية ، وكان لهم نشاط واسع . وكان الملك على بن محمد الصليحى كما يقول عمارة اليمنى[١] ، كان عالماً وفقيهاً مستبصراً فى علم التأويل وخطيباً بليغاً . وكانت الملكة الحرّة السيدة أروى بنت أحمد متبحرة فى علوم الدعوة الفاطمية ، وقد نبغ فى هذا العصر الدعاة المتضلّعون فى معارف الدعوة وعلومها مثل الداعى لمك بن مالك الحمادى[٢] وابنه الداعى يحيى بن لمك[٣] . والداعى الذؤيب بن موسى الوادعى[٤] ، والداعى محمد بن على بن أبى يزيد[٥] . والداعى على بن الحسين بن الوليد[٦] ، والسلطان الخطّاب ، والداعى إبراهيم بن الحسين الحامدى[٧] الذين يعدّون من الأركان الركينة فى الدعوة اليمنية . وكانت الدعوة اليمنية فى هذا العصر على اتصال وثيق بمركزها فى القاهرة .

وكان علماء أهل السنة والجماعة وخاصة الفقهاء الشافعية يتمتعون بالتشجيع

---

(١) عمارة / تذى ص ١٤ — ١٥ .
(٢) اطلب الصليحيين ص ١٧٥ — ١٨٠ .
(٣) المرجع السابق ص ١٨١ .
(٤) المصدر نفسه ص ١٨١ ، ٢٦٨ — ٢٦٩ .
(٥) كتاب الأزهار ج ٣ ص ٢١ .
(٦) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٠ .
(٧) انظر الصليحيين ص ٢٧٠ — ٢٧٣ .

من الدولة النجاحية . ويقول عمارة اليمنى [١] ، إنه شاهد جريدة الصدقات التى تدفع إلى الفقهاء والقضاة وعلماء الحديث والنحو واللغة فى أيام الوزير سرور الفاتكى ويبلغ مقدارها اثنى عشر ألف دينار كل سنة . وهذا المبلغ خارج عن العطايا والهدايا التى تمنح من جانب الأمراء والقوّاد .

ونلاحظ إلى جانب نشاط الدراسات الدينية المختلفة وما يتصل منها بأصول الدين والعقيدة ، النهضة الشعرية الشاملة فى جميع أنحاء البلاد .

وقد التفّ الشعراء حول الملوك والسلاطين الذين يجزلون العطايا لهم . وكان عمرو ابن يحيى الهيثمى شاعر الملك على بن محمد الصليحى [٢] . والحسين بن على القمّى شاعر الملك المكرّم [٣] ، والملكة الحرّة . ويعدّ الحسين بن على القمّى من رؤساء شعراء اليمن . وكان من شعراء الدولة الصليحية المعروفين غير الهيثمى والقمّى الحسن ابن أبى عقامة ، وأحمد بن على النّهامى ، والقاضى عمران بن الفضل اليامى وابنه القاضى حسين بن عمران .

كذلك كان فى بلاط الدولة النجاحية شعراء كثيرون . وكان جيّاش بن نجاح شاعراً . يقول عمارة اليمنى [٤] إنه رأى ديوان شعره مجلّداً ضخماً . ثم يقول هذا المؤرّخ فى موضع آخر إن الوزير منّ الله الفاتكى كان يثيب على المدح ثواباً جزيلا . وقد جلّدت مما مدح به عشرة أجزاء كبار من شعر المجيدين المشهورين [٥] . وكان الشعراء يتسابقون بالنشيد فى مدح الداعى محمد بن سبأ الزريعى بعدن . وقد

---

(١) عمارة / كتاى ص ٩٠ .

(٢) الصليحيون ص ١١٢ . ليس بين أيدينا نسخة ديوانه . قد وردت قصائده فى « عيون الأخبار » و « نزهة الأفكار » و « خريدة القصر وجريدة العصر » و « تأريخ عمارة » و « قلادة النحر » و « تأريخ أزدى » .

(٣) تأريخ ثغر عدن ج ٢ ص ٩ — ١٠ . ليس بين أيدينا نسخة ديوانه الكاملة ولكن توجد فى المتحف البريطانى ٢٨ صفحة صغيرة الحجم منتزعة من ديوانه فى قافية الدال والراء (رقم المخطوط ٤٠٠٤) وقد أورد الأصبهانى وإدريس عماد الدين بعض قصائده فى مؤلفاتها « خريدة القصر وجريدة العصر » و « عيون الأخبار » و « نزهة الأفكار » .

(٤) انظر كفاية ص ٧٠ (الف) .

(٥) عمارة / كتاى ص ٧٢ .

أثاب هذا السلطان شاعره القاضي يحيى بن أحمد لقصيدة بخمسمائة دينار وخلعة . ويقول عمارة اليمني إنه كان حوله أكثر من ثلاثين شاعراً . وشاعره القاضي يحيى بن أحمد يعدّ في الشعر عند أهل اليمن من طبقة ابن القمّ[1] .

وفي أواخر هذا العصر نبغ شاعر اليمن الشهير ومؤرخها عمارة اليمني . ولغويها المعروف نشوان الحِمْيَرى ، صاحب « شمس العلوم » .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٦ – ٥٧ .

الفصل الثانى

حياة الخطّاب

قد جاء شعر السلطان الخطاب موضّحاً ومفسراً لسيرة حياته وحوادث أيامه ، وبرزت أطوار حياته المختلفة فى شعره بروزاً يكاد يكون تامًّا . ففى ديوانه صور رائعة لنفسه ولاتجاهات فكره وضروب المحن التى لاقاها طوال حياته . وإننا نستطيع أن نقسم حياة السلطان الخطاب إلى أربعة أطوار . سندرسها من خلالها ، لأن كل فترة من هذه الفترات الأربع تمثل المراحل المتميزة فى حياته التى مرّت عليه .

الطور الأول

نسبه

ينتمى شاعرنا السلطان الخطاب بن الحسن بن أبى الحفاظ الحجورى إلى قبيلة الحجور وهو يشير إلى هذا فى شعره حيث يقول :

قومى حَجورٌ جناحٌ لى أطيرُ به ... وأهل عِزّى من دون الورى قُدَمُ[1]

ويقول فى قصيدة أخرى مشيراً إلى أوام وموله ابنى حجور :

وَاخْصُصْ بنى حَيَّىْ أَوامَ ومُولَهٍ ... قومى ذوى النَّسَب الأَمسِّ الأَقربِ[2]

وهى قبيلة شهيرة من قبائل همدان تقطن بلاد الحجور التى سميت بها . يقول صاحب الإكليل[3] : « إن حجور بطن عظيم باليمن والشام والعراق يقارب نصف حاشد » . ويقول هذا المؤلف فى كتابه القيّم عن جغرافية جزيرة العرب

---

(١) القسم الأول ٢٠/١٠ .

(٢) القسم الثانى ٤/٣ .

(٣) الإكليل ج ١٠ ص ٩٧ – ٩٩ ، كذلك شمس العلوم / حجور .

عند حديثه عن بلاد همدان التى تقع فيها بلاد الحجور يقول : « إنها أمنع ديار اليمن وأعزّها » ، ثم يضيف : « والحجور أربعون ألفاً فمنها حجور المخافر وبلادها الجُرَيْب وسُحَيْب وحَيْران وجَدْلان وقبر عليّان وحجور البطنة . والبطنة بلد ريف فى غربى بلد وادعة . والجُرَيب من إحدى أسواق بلد حاشد . وهى سوق لأهل تهامة ومكّة وعَكّ وجميع بلاد همدان»[1] . ويقول هذا المؤلف فى موضع آخر عند حديثه عن سراة قدم يقول : « إن الجريب سوقهم الأعظم يتسوّقه يوم وعده ما يزيد على عشرة آلاف إنسان »[2] .

وحجور هو ابن أسلم بن عليان بن زيد بن عريب بن جشم بن حاشد بن جشم ابن حُبران بن نوف بن همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن خيار بن مالك ابن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[3].

وقد أورد صاحب عيون الأخبار رواية نقلا عن جامع ديوانى السلطان سليمان والسلطان الخطاب فى نسبهما إلى حجور حيث يقول : « هما من ولد حريث ابن شراحيل ثم من ولد موله بن حجور»[4] . فهذه الرواية ناقصة ليس فيها التسلسل لأنه لم يذكرها بشكل مفصّل . ولذلك بحثنا طويلا فى كتب الأنساب والتأريخ سعياً وراء الحلقات المفقودة من رواية عيون الأخبار . وفى أثناء هذا البحث وجدنا رواية فى كتاب « روضة الألباب وتحفة الأحباب لمعرفة الأنساب » عند جدول نسب الملك المكرّم الصليحى ، وتبتدئ هذه الرواية بذكر أبى الحفاظ وتنتهى إلى موله بن حجور وهى هكذا :

« أبو الحفاظ بن عدنان بن أسعد بن أبى محمد بن محمد بن إبراهيم بن إسحاق ابن إبراهيم بن يزيد بن حنيف بن الخطاب بن عمر بن عبد الله بن زيد بن حارثة ابن الحارث بن موله »[5] . فالتفت النظر إليها لأن أبا الحفاظ كما عرفنا كان جد

---

(١) صفة ص ١١٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٩ .

(٣) اطلب شجرة النسب فى ملحق رقم ٣ .

(٤) انظر عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٢٣ .

(٥) روضة الألباب ص ٣٥ .

السلطان الخطاب ، ولكننا لم نطمئن إليها لعدم معرفتنا عن أبي الحفاظ الذى ورد ذكره فى هذا الجدول ، هل كان هو جدّ الخطاب أم غيره ؟

لذلك واصلنا البحث عنها وفى آخر جولتنا فزنا برواية صحيحة من كتاب « أنساب قحطان للهمدانى وأبى نصر البهرى » وهى : « حامد ورافع ابنا عامر ابن موله بن حجور بن أسلم بن عليان . وهما بطن ملوكهم عمرو[1] وسليمان ابنا الحسن بن أبي الحفاظ بن شرحبيل بن عمرو بن الخطاب بن شرحبيل بن عمرو ابن يوسف بن القياض بن عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن سعد بن يزيد ابن عبد الله بن رافع بن شيث بن الحارث بن عامر بن قاهب بن عليان بن الحارث ابن موله »[2] .

أسرته

لا تمدّنا الكتب التاريخية التى بين أيدينا بأية معلومات عن أسرة شاعرنا السلطان الخطاب . وقد ذكر عمارة اليمنى لجوء إبراهيم بن جيّاش إلى الحسن ابن أبي الحفاظ ، والد السلطان الخطاب بعد الخلافات والحروب التى نشبت مرّة ثانية بين أولاد جياش بن نجاح إثر وفاة الفاتك بن جياش سنة ثلاث وخمسمائة للهجرة، فى كتابه تاريخ اليمن حيث يقول : « ولمّا رأى إبراهيم بن جياش أن أخاه عبد الواحد قد سبقه إلى الأمر وإلى الحصون بزبيد توجّه إلى الحسن بن أبي الحفاظ الحجورى . وهو يومئذ بالجريب ، وبنو أبي الحفاظ من بنى حريث بن شراحبيل وهم يعودون إلى همدان »[3] .

---

(١) لم نتأكد من اسم الخطاب الأول . وأبو عمرو كنيته كما ذكرنا عند مولده ونشأته .

(٢) أنساب قحطان ص ٣١ – ٣٢ . يظهر لنا أن مؤلف هذا الكتاب كان من معاصرى السلطان الخطاب لأنه يقول : « ملوك الزمان وآل العصر والأوان آل الصليحى بالأخروج من حراز سادة كرماء من ولد سفيان بن جدى بن عبيد بن أوام بن حجور » . ص ٣٢ . وقد استقى المؤلف كثيراً من إكليل الهمدانى ثم أضاف إليه .

(٣) عمارة / كامل ص ٦٩ ، كذلك كنز الأخبار ص ١٨٧ (الف) ، كفاية ص ٧٢ (ألف) وقرة العيون ص ٨٦ . ورد اسم والد الخطاب فى كل هذه المصادر سوى كنز الأخبار « الحسين » . ولكننا فضلنا رواية مخطوطات الديوان والمصادر الفاطمية ، وأثبتناه « الحسن » .

نستنتج من هذه الرواية أولا أن الحسن بن أبي الحفاظ كان يتولّى الحكم على الجريب فى بلاد الحجور . ولكننا لا نعرف هل كان الحسن بن أبي الحفاظ أول من تولى الحكم من أسرته أم ورث هذه الرياسة عن أسرته كما كانت التقاليد السائدة فى تلك الأيام . ثانياً تشير هذه الرواية إلى مكانته وقدرته فى اليمن العليا . والسؤال الذى يهمنا فى هذا السياق هو ، ما هى العلاقات بين الحسن ابن أبي الحفاظ وبين الدولتين المتعاصرتين فى اليمن ، وهما الدولة الصليحية والدولة النجاحية ؟ وإذا بحثنا عن هذه الأسرة فى أسماء القبائل والرؤساء التى ساعدت الملك على بن محمد الصليحى فى قيام الدولة الصليحية لم نجد لها أى ذكر . وكذلك لم نسمع عنها فى أيام الملك المكرّم بن على الصليحى .

وعندما نلقى النظر على الأوضاع السياسية القائمة فى تلك الأيام نجد أن نفوذ الدولة الصليحية كان قويًّا فى شمال اليمن إلى أن توفّى السلطان أبو حميرسبأ بن أحمد الصليحى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة للهجرة . فخرجت صنعاء وأعمالها من حوزة الدولة الصليحية ، واستقلّ فيها الأمراء الهمدانيون[1] . ولذلك نرجّح أن تكون بلاد الحجور تحت نفوذ الدولة الصليحية . ونستبعد أن تكون لحسن بن أبي الحفاظ أية علاقات مع الدولة النجاحية كما يظهر لأول وهلة من رواية لجوء إبراهيم بن جياش إليه ، لأن عبيد الفاتك بن جياش ومولاهم المنصور بن الفاتك قد التجأوا إلى المفضّل ابن أبي البركات صاحب التعكر وإلى الحرّة الملكة بذى جبلة . وهما الدولتان المتخاصمتان ألدّ الخصام[2] . وثانياً كان الحسن بن أبي الحفاظ على علاقات بالخليفة الفاطمى فى القاهرة ، كما وجدنا من شعر السلطان سليمان .

وقد وجدنا فى ديوان السلطان سليمان قصيدتين فى مدح أبيه . وإنما تهمنا من هاتين القصيدتين القصيدة الأولى التى يمدح بها أباه ويهنئه بعيد الفطر[3] ، لذلك نورد منها بعض الأبيات :

---

(١) كما سبق فى الفصل الأول .

(٢) كما سبق ذكرهما فى الفصل الأول .

(٣) ديوان سليمان ص ٥ — ٧ ، القصيدة من البحر الطويل .

إذا سأل اللهُ الشهورَ فإنَّه سيُثْنى بما أوليتَه رَمَضانُ[1]
تلقَّيتَه بالنسك لله إنه من الحشر فى يوم الحساب أمانُ
وقرَّبتَ فيه صامتَ المال والورى قرابينهم معزٌ تُساق وضانُ
حريصاً على تقوى الإله وحيطةَ الـ ـم أنام جميعاً والحريصُ مُعانُ
كفلتَ ضعافَ المسلمين تقية فحوَّلَ عنهم صرفه ـ الحَدَثانُ

ثم يقول :

وأصبحتَ للإسلام ركْنًا[2] وعصمةً يُحاطُ بها شرعُ الهُدَى ويُصانُ
وظِلاًّ على الدين الحنيف وأهله إذا مَسَّهم إزلٌ وعاثَ[3] زمانُ
عَمَمْتَ بلادَ الله بالعدل عن يدٍ جميعاً ولم يُخصصْ بذاك يمان
ودارتْ أياديك البصيرةُ وانثنتْ إلى مصر لم يُثْنَ لهنّ عِنانُ
حملتَ إليها مال يحيى بن أحمد وقد مات مجهولا وشَطَّ. مكانُ

ويختم القصيدة قائلا :

فهُنِّيتَ عيد الفطر إذ جاء مُقْبِـلا وأسفر بالتوفيق منك أوانُ
تعَيِّد ألفًا بعده فى سعادةٍ بها من تصاريف الزمان صُوانُ

نستخرج من هذه القصيدة أولا : أنه كان متديّناً متورعاً وكان الزهد والنسك سيرته . وثانياً : نستنبط منها علاقاته المباشرة مع الخليفة الفاطمى فى القاهرة . وثالثاً : أنه حارب الإمام الزيدى أبا طالب الصغير[4] يحيى بن أحمد بن الحسين بن المؤيد

(١) فى الأصل : رمضانوا .
(٢) فى الأصل ركن .
(٣) فى الأصل : عبث .
(٤) اطلب ملحق رقم ٤ . يقول صاحب فرحة الهموم : كانت دعوته سنة ٥٠٣ هـ فى الجبل ، وجاهد الباطنية فقتل منهم فى يوم واحد ألفاً وأربعمائة . توفى سنة ٥٢٠ من بلاد الديلم وقبره المجهول . فرجة الهموم ص ٢٨ — ٢٩ .

بالله ، وأرسل ما قبض من أمواله إلى الخليفة الفاطمى هدية ورمزاً لولائه وإخلاصه له . هنا يتردّد السؤال فى ذهن القارئ عن مذهب الحسن بن أبى الحفاظ . هل كان من أهل الدعوة الفاطمية أم من غيرهم ؟ أما مصادر الدعوة الفاطمية فليست عندها أية أخبار عن والد السلطان الخطاب . وكذلك لم نجد أية إشارة فى شعر الأخوين سليمان والخطاب إلى هذه الناحية . ومهما يكن من شىء فالذى نلاحظه من خلال هذه القصيدة عن علاقاته مع الخليفة الفاطمى ومحاربته الإمام الزيدى ، هو ميله إلى الفاطميين .

مولده ونشأته

لم تبلغنا أخبار السلطان الخطاب عن مصادر الدعوة الفاطمية إلا مقطّعة ووجيزة جداً بحيث لا نستطيع تتبعه فى مختلف مراحل حياته . وإنما اعتمدنا على شعره وخاصّة القسم الثانى من ديوانه اعتماداً تامّاً فى إخراج صورة حياته . لا تذكر هذه المصادر متى ولد الشاعر . وكيف نشأ وشبّ وكذلك لا نعرف شيئاً عن تربيته وثقافته الأولى التى تؤثر فى تكوين شخصية الرجل وسيرته . ويظهر لنا أنه تأثر بسيرة أبيه وميله إلى الفاطميين تأثيراً كبيراً .

يبدو لنا أن الخطّاب كان لقبه الذى أصبح معروفاً به فيما بعد . ولا نعرف اسمه الأول و « أبو عمرو » كنيته لأن السلطان سليمان يخاطبه بهذه الكنية فى شعره[1] .

وفاة أبيه

يقول صاحب عيون الأخبار نقلا عن جامع ديوانى الخطاب وسليمان : « وجرت المقادير بينهما [أى الخطاب وسليمان] بعد موت أبيهما الحسن بن أبى الحفاظ رحمة الله عليه بالاختلاف وقلة الائتلاف وتنافرا وشجرت بينهما الحرب فى سنة خمسمائة إلى

(١) ديوان سليمان ص ٦٦ ، وقصيدته التى يذكر فيها قتل الخطاب لأخيه أحمد .

خمسمائة وأربع عشرة فغلب الخطاب على الأمر وهو أصغر سنّاً»[١] . حسب هذه الرواية قد توفى أبوهما قبل سنة خمسمائة بسنتين أو ثلاث على الأقل . ولكن رواية عمارة اليمنى فى لجوء إبراهيم بن جياش إلى الحسن بن أبى الحفاظ تثبت أنه كان حيّاً إلى سنة ثلاث وخمسمائة لأن هذه الحادثة قد وقعت فى تلك السنة[٢] . وإنما نحن نرجّح رواية عمارة اليمنى لأنه كان من معاصرى الخطاب وكذلك جاء ذكر والد الخطاب فى سياق الحوادث التاريخية . يظهر لنا أنه ربما سقطت كلمة « بعد » من رواية عيون الأخبار أى « بعد سنة خمسمائة » لأن استمرار الحروب بين الأخوين لمدة أربعة عشر عاماً يبدو غير صحيح وبعيداً عن الصواب . لذلك نستطيع أن نقول إنه توفى بعد سنة ثلاث وخمسمائة .

الطور الثانى

الخطّاب فى ظلّ أخيه السلطان سليمان

لا نستطيع أن نستخلص من رواية عيون الأخبار التى سبقت الإشارة إليها من الذى تولّى الحكم على الجريب بعد وفاة الحسن بن أبى الحفاظ . ولكننا وجدنا قصيدة فى ديوان الخطاب وعنوانها « يمدح أخاه سليمان أيام طاعته له »[٣] وبعد قراءة هذه القصيدة وتصفح ديوانى الخطاب وسليمان — نستنتج أن سليمان تولى الحكم على الجُرَيب بعد وفاة أبيهما . كذلك يتبين لنا من الأحداث التى وقعت بين الأخوين فيما بعد أن الخطاب أيضاً كان يتولى رياسة بعض المناطق من مملكة أبيه فى أيامه . وبعد وفاة أبيه كان يدين بالطاعة لأخيه الأكبر السلطان سليمان الذى تولى الحكم على الجريب وهى عاصمة المملكة .

وقد ظلّت هذه العلاقات بين الأخوين طيّبة وحسنة مدّة من الزمن كما يظهر

---

(١) انظر عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٢٣ .

(٢) كما سبق فى الفصل الأول .

(٣) وهى القصيدة الثانية عشرة فى القسم الثانى .

لنا من شعرهما . توجد فى ديوان الخطاب قصيدتان فى مدح أخيه الأكبر سليمان[١] . وكذلك يستهلّ ديوان سليمان بقصيدة قد قالها فى مدح أخيه الأصغر الخطّاب . هذه القصائد الثلاث تصوّر لنا مدى هذه العلاقات الطيبة التى كانت قائمة بينهما . وقد سبقت الإشارة إلى قصيدة الخطاب الأولى فى مدح أخيه . وهنا نقدّم أمثلة من القصيدة الأخرى :

نضانى على الأعداء سيفًا فلم أزل أذُبُّ وأحمى دونه وأكافِحُ
وفوَّضَنى فى ماله وأموره مليكٌ له خُلْقان عذبٌ ومالِحُ
ونَوَّهَ باسمى وارتضى بى مُوازِرًا نصيحًا إذا غشَّ النصيحُ المُناصِحُ[٢]

وإليك بعض هذه الأبيات من قصيدة السلطان سليمان فى مدح أخيه الخطاب :

لولا بصيرتك التى شفّافُها كلّ الجواهر فى الورى أصدافها
وعلوّ هِمَّتِك التى شَرُفَتْ وقد طال المحرت[٤] سامياً إشرافُها
تُملى بألسن ما خُصِصْتَ به إذا مدّاحُها من سودد أوصافُها
ونفيسُ نفسِك إنها علويّةٌ زينُ المعالى جودُها وعفافُها
عجم[٥] الزمانُ قناتَها فإذا بها لم يستلن للغمز منه ثقافُها

ثم يقول :

مملوءةٌ بقِرَى الضيوف جفانُها مخضوبةٌ بدم العدا أسيافُها
ولقد تحقّقت العُفاةُ بأنه متواترٌ متقاطرٌ[٦] جحّافُها
طُبِعَتْ على بأسٍ يخصّ عُداتَها وعلى الخطابة عدّةٌ أصنافها
فالوعدُ منها والوعيد مُصَدَّقٌ ما يُختشى فى كلّه إخلافُها

---

(١) القصيدة الثانية عشرة ، والثالثة عشرة فى القسم الثانى .
(٢) القسم الثانى ١٣/٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ .
(٣) ديوان سليمان ص ١ ، وهى من البحر الكامل .
(٤) فى الأصل : شامتا . ولعل المحرت اسم الجبل ، وطال بمعنى تجاوز .
(٥) الرسم يحتمل : عجب . واللفظ يستلن أقرب قراءة لما فى الأصل .
(٦) فى الأصل : متواتراً متقاطراً .

وكذاك سادات الرجال ومن حذا ذاك المثالَ فإنها أشرافُهـا
لم أعتمدك ذريعةً فى حاجةٍ بلطيف رأيك يُرْتَجى إسعافُها

ويختم القصيدة قائلا :

وأنا امرؤٌ عاذت برأْيك نفسُه من خُطّة قد[1] لا تزال تخافُها
وكذا العيونُ تصبُّ فيضَ دموعِها دُرَرًا إذا نال الأَذى آنافُها

ولكن هذه الفترة فترة الحبّ والوئام بين الأخوين لم تستمرّ طويلا فبدأ سحاب الاختلاف وقلة الائتلاف يتجمّع فى الأفق شيئاً فشيئاً حتى تفاقم هذا الوضع وأدّى إلى الحروب السافرة بينهما كما سنذكرها فيما يأتى :

توتر العلاقات بين الأخوين

قد قال صاحب عيون الأخبار كما سبق ، إن المقادير جرت بين الأخوين بعد وفاة أبيهما بالاختلاف وقلة الائتلاف حتى نشبت الحرب بينهما . وهذه الرواية قد نقلها عن جامع ديوانى سليمان والخطاب والظاهر منها أنه لم يذكر السبب الذى نشأ الخلاف حوله .

يقول الداعى إدريس عماد الدين فى كتابه « نزهة الأفكار » : « وكان أحمد ابن الحسن قد قتل أختهما جميعا ظلماً وعدواناً بغياً وطغياناً . وهى امرأة صالحة وذلك ذنبه الذى فرّق بينه وبين أخيه سليمان وجرأه على قتله إنكاراً لما قدم من معاصيه»[2] ثم يفسّر هذا المؤرخ سبب الخلاف بينهما مرّة أخرى فى كتابه عيون الأخبار هكذا : « إنما كان حربه لإخوته إذ كانوا مخالفين له فى المذهب والسيرة ومعاندين للأئمة عليهم السلام مباينين للدولة الصليحية مناصبين لها كثيرى البغى على الداعى الخطاب . ولذلك مال سليمان إلى الحبشة بزبيد ، وكان النصر للداعى

(١) فى الأصل حفظه فى .
(٢) نزهة الأفكار ج ١ ص ٨٧ .

الخطاب ، عالى الأمر وحميد العاقبة . وكان يستنصر بالحرّة الملكة ويذكر ما أقام من الدعوة إلى الإمام الآمر بأحكام الله عليه السلام وإقامة الخطبة له . وضرب السكّة باسمه »[1] لذلك يجب علينا أن نقف وقفة قصيرة عند هذين السببين اللذين ذكرهما مؤرخ الدعوة الفاطمية ونحاول التحليل فى ضوء ما وصلنا من شعر الأخوين . وكذلك نستعين فى هذا التحليل بالبيئة السياسية القائمة فى تلك الأيام لكى نعرف سبب الخلاف . هل كان شخصيًّا أم عائليًّا أم سياسيًّا أم جميعها معاً ؟

سوف ندرس قضية مقتل أحمد بيد الخطاب أولا مما وصل إلينا من شعر الخطاب وسليمان . قد نظم السلطان سليمان قصيدة يذكر قتل الخطاب لأخيه أحمد وإليك هذه القصيدة[2] :

وقال السلطان سليمان يذكر قتل الخطاب لأخيه أحمد بن الحسن :

[الكامل]

زرفت دموع العين فى الخدّين ... وتعلّق الأرق الطويل بعينى
وتمدت سيّد يَعْرُبٍ وهُمامها ... رحب الفناء مشرف الجدَّينِ
ليثٌ قُضاقِضةٌ هُمامٌ ضيغمٌ ... فَرَسَ الليوثَ بساحة الدارَيْنِ *
وحمى حِماهُ بالمهنَّدِ عنوةً ... يوم الخميس بملتقى الجَمْعَيْنِ *
شهدتْ حجورٌ والبياضُ جميعُها ... أن المهذَّب فارس الثقلَيْنِ *
يرمى الكُماة بنحره وبمهره ... وبكفِّه مذلوق الحدَّيْنِ *
يا قاتلَ الأَسد الهَصُور قتلتَهُ ... وقبلتَ فيه مشورة العبدَيْنِ *
ما كان يحسن فى أبى[3] الحسن الذى ... يحمى الديار يكون مقصى[4] الدَّيْنِ *

---

(١) عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٢٦ .
(٢) وردت هذه القصيدة فى ديوان الخطاب القسم الثانى قبل القصيدة الثامنة والعشرين .
(٣) الكلمات التى عليها هذه العلامة مكتوبة فى الأصل بالياء فى آخرها .
(٣) فى الأصل : أب .
(٤) فى الأصل : مقضى .

أقتلتَ نَفْسَكَ[1] طالِبا شَرَفَ العُلا ... ليس العُلا بقطيعة الصنوَيْنِ
إن العَلاء من السماء مركَّب ... فانظر لنفسك فى لقا الملكَيْنِ
أطمعتَ فى مالٍ يخلَّف بعده ... والمال لا يربو على الظلمَيْنِ
ورغبتَ فى إغلاق بابٍ واحدٍ ... وفتحتَ من جوّ السما بابَيْنِ
أتعبتَ نفسك فى أساسك للعُلا ... وهدمتَ من أركانها ركنيْنِ
وفعلتَ فعلا ما يزينك فعله ... وقطعتَ بالسيف البتور يدَيْن
تبغى المودّة فى نواحى مَسْوَر ... وتذب[2] صفوة خالص الأَبَوَيْنِ
مهلا أبا عمرو فقد أعدمتنا ... سيف العداة ووافر الحدَّيْنِ[3]

نستخرج من هذه القصيدة أن السلطان سليمان لم يذكر السبب الحقيقى الذى حثّ الخطاب على قتل أخيه أحمد . بل لزم السكوت من هذه الناحية ويقول إنه قبل مشورة العبدين فيه ، وقتله طالباً المجد وطامعاً فى المال . ثم ردّ الخطاب على قصيدة سليمان هذه بقصيدة قالها فى نفس القافية والبحر وهى القصيدة الأخيرة من القسم الثانى فى ديوانه ، والتى لم تصلنا كاملة لأن نسخة الديوان مبتورة من الآخر . وإنما نلاحظ فى هذه القصيدة السببين اللذين حملاه على قتل أخيه أحمد وهما : الأول : سيرته المنكرة والثانى : أنه قتل أختهم جميعا . وإليك أمثلة من تلك القصيدة :

ما كان يَحْسُنُ كشفُ فعلة أحمد ... ألا تكون بأسبغ السِّتْرَيْنِ
لكنْ إذا قد شئت كشفَ فعاله ... فأنا بذلك أبيض الثوبينِ
لا تحسبنَّ بأنّنى لم أفْنِه ... إلا مخافةَ شركة الأمرينِ

---

(١) فوق هذه الكلمة فى الأصل : صنوك .
(٢) كذا فى الأصل ، ولعلها : تجب أو تذيب .
(٣) ورد صدر البيت فى الأصل : مهلا بشىء يا أبا عمر فقد — ولعل صحة البيت ما أثبتناه .

ثم يقول :

ترضى لأحمدَ سفكَه دمَ أختِهِ أترى بذاك تواصل الأخوين ؟
فبدرتُ حين أتى بسوء فعاله أجريتُ منه الموت فى الوَدَجَيْنِ
طهَّرتُه بالسيف يومَ قتلتُه ومذيتُ عنّى أخبثَ القولينِ[1]

كل الأبيات فى القصيدة تشير بقوة بالغة إلى أن أحمد قد أتى بالفاحشة المنكرة ثم قتل أخته . وقد أشار الخطاب إلى قتل أحمد بيده فى قصيدة أخرى وهنا أيضاً يكرّر نفس الأسباب التى ذكرها فى القصيدة السابقة حيث يقول :

ما شاكَ ذا رحْمىَ بى شائكٌ ولا أغتدى ذا وَدَجٍ فاتِحِ
بل فى رضاء الله . لمّا أغتدى يمتح فى الفسق مع الماتحِ
وارتكب الفحشاء من مَحْرمٍ باشر منه أيّما جائحِ
جشمتُ نفسى خُطَّةً صعبةً فيه أتته بِرَدًى تائح
غسلتُ عن عِرْضى وعن عِرْضِهِ بها مقالَ القائل القابحِ[2]

يبدو لنا من هذه القضية أن السلطان سليمان بدلا من أن يرثى أخته ويحاكم أخاه قد ترك أحمد على حاله . ولما أخذ الخطاب الثأر منه جعل السلطان سليمان هذا السبب عذراً لمحاربة الخطاب . وهذا يشير إلى أن الخلاف بين الخطاب وسليمان كان قائماً من قبل هذا الحادث . كذلك نستخرج من هذا الحادث أن أختهم كانت إلى جانب الخطاب وكان أحمد إلى جانب السلطان سليمان فى النزاع بين الخطاب وسليمان . وشعر السلطان سليمان يؤيّدنا فى رأينا هذا حيث يقول[3] :

وأخوه أحمد كان تحت لوائه فى فتنتى مثل الحُسام الفاصِلِ

---

(١) القسم الثانى ٤/٢٨ – ٦ ، ٨ ، ١٠ – ١١ – ولعلها محيت . لا مذيت .
(٢) القسم الأول ٥٦/٥ – ٦٠ .
(٣) ديوان سليمان ص ٣٢ .

فدعاه يوم العيد نحو غدائه[1] ولأكلة كانت فناء الآكل

ففَرَى وَرِيدَيْه بطعنةِ حربةٍ أجرتْ ملاعبه بأحمرَ سائلِ

والآن ندرس السبب الثانى الذى ذكره صاحب عيون الأخبار أن إخوة السلطان الخطاب كانوا مخالفين له فى المذهب ومعاندين للأئمة ومباينين للدولة الصليحية مناصبين لها . وحينما نوجّه النظر إلى البيئة السياسية التى كانت قائمة أيام تولى السلطان سليمان الحكم على الجُرَيب نجد شمس الدولة الصليحية قد أخذت فى الأفول بعد وفاة الأمير المفضّل ابن أبى البركات الحِمْيَرى سنة أربع وخمسمائة . وقد تقلص نفوذ هذه الدولة من اليمن العليا بعد وفاة السلطان أبى حِمْيَر سبأ بن أحمد الصليحى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة . وخرجت صنعاء وأعمالها على إثر وفاته من حوزة الدولة الصليحية حيث استقل فيها الأمراء الهمدانيون[2] . لذلك ليس من المستبعد أن تحاول الدولة الصليحية استرجاع نفوذها فى هذه المناطق التى كانت معاقل للدعوة الفاطمية من قبل .

وبلاد الحجور التى تقع فى سراة قدم شمال غربى اليمن وتطلّ على تهامة تعتبر من المناطق الاستراتيجية وهى واقعة على حدود تهامة من جانب حيث كان النفوذ للدولة النجاحية وعلى حدود مملكة الأشراف ــ السليمانيين ــ من جانبها الآخر . وكانت مدينة الجُرَيب السوق الأعظم للمناطق المجاورة كما يحدثنا صاحب صفة جزيرة العرب حيث يجتمع أهل تهامة ومكة وهمدان أيام السوق ويزيد عددهم على عشرة آلاف متسوّق[3] . فحاولت الدولة الصليحية بطريق دعاتها استمالة الخطاب إلى المذهب الفاطمى . وبعد اعتناقه هذا المذهب حثته حماسته للدعوة وحبه للأئمة إلى إعلاء كلمة الدعوة فى بلاده . ، وكان يلقى تشجيعاً كبيراً من الدولة الصليحية . أما أخوه الأكبر السلطان سليمان الذى لم يعتنق هذا المذهب الفاطمى فقد أحس من أخيه الخطاب التهديد على نفسه . ومن هنا ظهر الخلاف بينهما وأخذت شقة

---

(١) فى الأصل : غداة ، ولا يستقيم البيت بها .

(٢) سبق ذكره فى الفصل الأول .

(٣) قد سبقت الإشارة إليها فى هذا الفصل عند حديثنا عن نسب الشاعر .

الخلاف تزداد يوماً بعد يوم .

والآن نقف عند مسألة اعتناق الخطاب المذهب الفاطمى لأن مسألة دخوله فى الدعوة الفاطمية تؤيدنا فيما ذهبنا إلى أن السياسة لعبت دوراً خطيراً فى النزاع بين الأخوين حتى أدت إلى كارثة الأسرة كلها . وقد تحدثنا عند الحديث عن أسرة الخطاب عن ميل والد الخطاب الحسن بن أبى الحفاظ إلى الفاطميين . والخطاب قد اعتنق هذا المذهب على يد الداعى الذؤيب بن موسى الوادعى الذى كان أستاذه وفى اصطلاح الدعوة كان مفيده . ولذلك نراه يخاطبه فى الشعر بالوالد الرؤوف الذى أوجده من العدم ، يقول :

يا مُوجِدى من عَدَمٍ باعثى ... نورًا من المظلمة الداجيه
ومُخرِجى من فِرَقٍ أُهْلِكَتْ ... ومُلحِقى بالفرقة الناجيه

ثم يقول فى قصيدة أخرى مشيراً إلى ولاية أهل البيت يقول :

ولاء أهل البيت دينى الذى ... به مسحتُ الكفَّ للماسحِ
ياقادِحا زَنْدَ ملامى على ... حُبِّهمُ قُبِّحْتَ من قادح
سمحتُ من قبل مُوالاتهم ... بما به لم أُضْحِ بالسامِح[٢]

هذه الأبيات تشير إلى أنه لم يكن من أهل الدعوة منذ صغره بل اعتنق هذه الدعوة فيما بعد . وكذلك وجدنا علاقات الخطاب مع الداعى الذؤيب من أيام ظهور الخلاف بين الأخوين ، والسلطان سليمان قد أشار إلى هذه العلاقات بينهما واتهم الداعى الذؤيب بتحريض الخطاب عليه . قال السلطان سليمان[٣] :

قُلْ للذويب وقُلْ لابن العديب[٤] ، أما ... كنتم لخطاب فى آرائه شُوَرا ؟

---

(١) القسم الأول ١/١٦ – ٢ .
(٢) القسم الأول ٥/٤٤ ، ٤٦ – ٤٧ .
(٣) ديوانه ص ٦٧ ، والقصيدة من البحر البسيط .
(٤) كذا فى الأصل ، ولم نعثر عليه فى الكتب التى تناولتها ، لعله : ابن الوليد ، وهو الشيخ على بن الحسين بن الوليد ، أحد دعاة الفاطميين فى أيامه – اطلب كتاب الأزهار ج ٣ ص ٢١ .

تستوليان على آرائه أبدا وتكرهـــان له الأحداث والغِيَرا
إنَّ الذؤيبَ وإبراهيمَ[1] قد نزلا كلَّ النزول عن[2] دولة الوُزَرا
وأنتما فمتى نابتْهُ نائبـــةٌ صَليتُما الجمر من كادوه[3] والشَّرَرا
نظمتما حال خطاب برأيكما حتَّى إذا تم فيما رامه نثرا

وبعد الحروب الطويلة بينهما ، لما غلب الخطاب على أخيه الأكبر سليمان استولى على مدينة الجُرَيب وأعلن الدعوة الفاطمية فى بلاده جهراً وخطب باسم الإمام الآمر بأحكام الله الفاطمى . وهو متحمس لإظهار هذه الدعوة وفخور بها . يخاطب فى قصيدته أهل الدعوة ويقول :

هل أتاكم ما كان منِّى من الـ كشف لأهل الضلال والطغيان
وقيامى بدعوة الآمر المنـ صور جهرًا فى موضعى ومكانى
بين قوم جميعهم لى أضدا دٌ وحيدا مالى من القوم ثانى[4]

وأشار إليها مرّة أخرى فى القصيدة التى مدح بها الملكة الحرّة حيث يقول :

وأظهر للمنصور مولاىَ دعوةً موطَّدة فى مسكنى وقرارى
وأكشفها جهرًا بغير تستّر وأعلنها كشفًا بغير سِرارِ[5]

ثم أشار إلى قراءة الخطبة باسم الإمام الآمر الفاطمى وضرب السكة باسمه ، يقول :

خطبتُ لمولانا وأظهرتُ سِكَّةً عليها اسمه طارتْ بكلِّ مطارِ

---

(١) هو إبراهيم بن الحسين الحامدى الذى تولى رياسة الدعوة بعد الداعى الذؤيب .
(٢) كذا فى الأصل ، ولا يستقيم البيت به ، لعله : بعز .
(٣) الرسم يحتمل : كلفوه .
(٤) القسم الأول ١١/١٩ – ١٣ .
(٥) القسم الثانى ٥/٦ – ٦ .

لدى معشرٍ حبلُ الضلالة عندهم مُغارٌ وحبلُ الدين غير مُغارِ[١]

إعلان الدعوة الفاطمية فى بلاده بهذه الحماسة الشديدة ، يثبت لنا أنها لم تكن موجودة من قبل بهذه القوة يساندها ملك أو سلطان . وهذا بالتالى يؤيدنا فيما ذهبنا إليه من أن السياسة لعبت دوراً رئيسيًّا فى النزاع بين الأخوين ثم أخذ هذا النزاع السياسى لوناً مذهبيًّا عند الخطاب . والدليل الأخير على أن السلطان سليمان لم يكن من أهل الدعوة ولم يعتنق هذا المذهب هو خلو ديوانه من أى تأثر من قريب أو بعيد بالمذهب الفاطمى .

الحروب بينهما

هذه الأسباب التى ذكرناها وسعت هوّة الخلاف بين الأخوين ثم حمل الخطاب قتل أحمد أخيهم إلى قتله بالتالى . وأخذ السلطان سليمان هذه الحادثة عذراً له. ومن هنا بدأ الخلاف يأخذ شكل الغارات والحروب السافرة بينهما واستمرّت هذه الحروب عدّة سنوات . وكان الخطاب يجمع خمسمائة فارس وأخوه السلطان سليمان يجمع ثلاثمائة فارس[٢] . وكان الخطاب يعتمد على مساعدة[٣] القبائل بنى جل[٤] . العين ، الطرف . شمر ، بنى جيش[٥] ، سمى[٦] ، الواشج[٧] ، العوازم ، بنى جميلة[٨] ، امرور . فائش[٩] ، خولى ، قدم[١٠] ، العك[١١] .

---

(١) القسم الثانى ٦/١٧ - ١٨ .

(٢) عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٢٤ ، ونزهة الأفكار ج ١ ص ٨٧ .

(٣) قد أشار سليمان فى شعره إلى هذه القبائل . ديوانه ص ٣٧ ، ٦٥ .

(٤) هم من أولاد جل بن قدم بن قادم . إكليل ج ١٠ ص ١٠٢ .

(٥) جيش بن فائش بن جابر بن عبد الله بن قادم . إكليل ج ١٠ ص ١٠٥ .

(٦) سمى بن مرار بن جابر بن عبد الله بن قدم . إكليل ج ١٠ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٧) واشج بن مرار بن جابر عبد الله بن قادم . إكليل ج ١٠ ص ١٠٤ .

(٨) جميلة بن فائش بن جابر بن عبد الله بن قادم . إكليل ج ١٠ ص ١٠٥ .

(٩) هو فائش بن جابر بن عبد الله بن قادم . إكليل ج ١٠ ص ١٠٥ .

(١٠) قدم بن قادم ، اطلب شجرة النسب فى ملحق رقم ٣ .

(١١) سيأتى أخبار هذه القبيلة فى الطور الثالث من حياة الخطاب .

وكذلك الأمير غانم بن يحيى السليمانى[١] .

وفى هذه الحروب والغارات كان الخطاب أقوى من السلطان سليمان كما نلاحظ من عدد الفوارس الذين كانا يجمعانهم . وكذلك نلاحظ من قصائد السلطان سليمان التى قالها عاتباً أخاه الخطاب فى هذه الفترة أن الخطاب قد أصابه بأضرار فادحة ، وثانياً : نجد التماس السلطان سليمان الوسائل إلى الخطاب . وإليك بعض الأمثلة من هذه القصائد . يقول مخاطباً لأخيه الخطاب[٢] :

إذا ما صَفَتْ منّى ومنك العقائدُ ... تقارب من أحوالنا المُتَباعِدُ
ومن لىَ يا خطّاب بالوقفة التى ... لها منك بالأيمان والصِّدْق شاهِدُ
وعندىَ فى كلّ الذين ذكرتُهم ... أمورٌ ولكنْ أين أين المُساعِدُ
ولم يتسامح لى فأخرجَ سالِمًا ... من الغدر إذ ما لى بغدرٍ عوائدُ
فلا تعتقد إلا وفاى فإننى ... إلى كلّ ما يُرضيك واللهِ عائدُ
لكان جوابى بعد ما قد بَذَلْتُهُ ... ركوبى ، وأنى نَحْوَ دارك قاصِدُ

ثم يقول فى قصيدة أخرى[٣] :

لقد بعث الخطّابُ لى ولنفسه ... كما ثار منّى محنة وعذابا
أيَنْسبُنى نحو الخطاء وربّما ... يرى الرأىَ منظور الخطاء مُعابا
ويشكر فيه نَفْسَه ويَذُمُّنى ... ويزعم أنْ قد صار ذاك صوابا
مضى بامتحان الدهر لى فيك حِجَّةٌ ... وسبعٌ مُصِيبًا مرّةً ومُصابا
فما عطفتك الآصرات[٤] ولم أجد ... لسالف إحسانى إليك ثوابا
وكنتُ أظنّ الخيرَ لى منك قسمةً ... فأخلف ظنّى عند ذاك وخابا
فلا الرحم القربى المسوس ثَنَتْك لى ... فتفتح ما بينى وبينك بابا

---

(١) سيأتى أخباره .
(٢) ديوان سليمان ص ٦١ – ٦٢ ، القصيدة من البحر الطويل .
(٣) ديوانه ص ٤٢ ، والقصيدة من البحر الطويل .
(٤) كذا فى الأصل ، ولا يستقيم الوزن بها . لعلها : الآسرات .

الطور الثالث

لما تغلب الخطاب على أخيه الأكبر سليمان طرده من البلاد وأصبح هو سلطان بلاد الحجور ولجأ أخوه السلطان سليمان بعد طرده من الجُرَيب إلى بنى أفلح ثم إلى الأمير غانم بن يحيى السليمانى ، ثم إلى الدولة النجاحية . فجيش مستنصراً بهم على أخيه . فاستغار بغارات عليه ولكنه لم يتمكن من استرجاع الجريب من يد الخطاب لأن الخطاب كان يتمتع بتأييد الدولة الصليحية[١] . لذلك نرى ضرورة الدراسة لهذه الفترة من حياته التى أصبح فيها سلطاناً فى ضوء علاقاته مع هذه القبائل والأسر الحاكمة والدول المعاصرة فى اليمن .

السلطان الخطّاب والأفلحيون

بنو أفلح بطن من الحجور . وهم من أولاد أفلح بن قحطان بن عبيد بن أوام ابن حجور[٢] . وكانوا يقطنون مدينة العرق كما روى صاحب عيون الأخبار[٣] . كذلك ورد اسم هذه المدينة فى شعر السلطان الخطاب فى القصيدة التى قالها مخاطباً أخاه السلطان سليمان بعد أن أخرجه من مدينة الجريب حيث يقول :

إذا بلغت العرقَ فاربع به معرّسًا تعريسة النازلِ[٤]

وبعد حروب طويلة لما تغلب الخطاب على الجريب خرج أخوه السلطان سليمان منها والتجأ إلى بنى أفلح بالعرق . فاستنجد بهم وأغار على الجريب . وقد أشار السلطان الخطاب إلى هذه الغارات والحروب فى القصيدتين اللتين قالهما معاتباً بنى أفلح[٥] ، حيث يقول :

---

(١) عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٢٣ .

(٢) اطلب شجرة النسب فى ملحق ٣ .

(٣) عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٢٣ .

(٤) وهى القصيدة الأخيرة من القسم الثانى التى أثبتناها من « خريدة القصر » و « عيون الأخبار »

(٥) القصيدة السادسة عشرة والسابعة عشرة فى القسم الثانى .

ما كان مُوجِبَ ما بنى وبينكمُ يا قوم من هذه الأَحداث والغِير
قُمْتُمْ لحَربىَ ظُلْمًا حامِلين له والظلمُ مَوْرِدُ سوءٍ غيرُ ذى صَدَرِ[1]

ويقول :

وزُرْتُمونى إلى دیارى بالحرب مشبوبة الضِّرامِ
وتحملون السِّلاحَ نحوى حتَّى كأَنِّى أَخو اجترامِ[2]

ويبدو لنا من هاتين القصيدتين أن السلطان الخطاب لم يردّ عليهم بالمثل . بل حاول أن يجعلهم يخذلون أخاه سليمان ولا يساعدونه عليه . والأبيات التالية تصوّر لنا محاولة المصالحة هذه .

ولا تظنّوا بأَن العىَّ أَقعدنى عنكم ولا أَنَّ جمرى غيرُ ذى شَرَر
فَارْعَوْا حقوقى ولا تستضعفوا خَبَرى عُودوا فما أَنا بالداعى ولا الأَشِرِ
إنْ تطلبوا الحقَّ نُعْطِ الحقَّ طالِبَهُ والسيفُ فى الغِمْدِ والأَدراعُ فى السُّفَرِ
أَو تطلبوا حُكْمَ عَتْبٍ تُلْزَمون به لحاكم لم أَكن عنه بمُنْبَتِر
أَو السِّلاحَ فإنى غيرُ مُبْتَعِدٍ إذا نظرتم بطَرْفٍ عادِلِ النَّظَرِ[3]

وقد نجح الخطاب فى هذه المحاولة فخذلوا أخاه سليمان . وعدم وجود أية قصيدة فى ديوان السلطان سليمان يمدح الأفلحيين يشير إلى أنه لم يمكث بهم إلا مدةً وجيزةً . فعادت العلاقات الطيبة بين السلطان الخطاب والأفلحيين كما يظهر لنا من قصيدتين فى مدحهم[4] . ووجود خمس[5] قصائد عن هذه القبيلة فى ديوان السلطان الخطاب يشير إلى مكانتها وقوّتها فى بلاد الحجور .

---

(١) ١٦/١٢ ، ١٤ .
(٢) ١٧/٩ — ١٠ .
(٣) ١٦/١٧ ، ٢٥ — ٢٨ .
(٤) وهما القصيدة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة فى القسم الثانى .
(٥) وهى ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

السلطان الخطّاب والأمير غانم بن السليمانى

نحن قدمنا تأريخ هذه الأسرة فى الفصل السابق عند حديثنا عن البيئة السياسية وهنا نقصر الكلام على علاقات السلطان الخطاب مع الأمير غانم . يبدو لنا من شعر السلطانين سليمان والخطاب أن الأمير غانم كان إلى جانب الخطاب فى النزاع بين الأخوين . إلى هذا يشير السلطان سليمان :

ولو احتذرتُ أخى وغانم لم يكن جِلْدى بِظِفْرِهما جريحاً دامى[1]

وقال فى قصيدة أخرى :

ومن بعد هذا كلّه أنَّ غانماً بفتكىَ فيه ، والعظيم يدانى[2]

وظل هذا الأمير إلى جانب الخطاب فترة من الزمن بعد أن تغلب على أخيه وطرده من مدينة الجرَيب . وقد ذكر السلطان الخطاب مساعدة الأمير غانم له وأشار إليه فى القصيدة التى يعاتب بها الأفلحيين لما قاموا بالحرب ناصرين أخاه عليه ، يقول :

نِيطَتْ يدى بيدٍ من غانمٍ جعلتْ طِراقَ نَعْلى عُلْواها على القَمَر
وأصبحتْ لى منه قوّةٌ غلبتْ بقوّة الله حقًّا قوّةَ البَشَرِ[3]

ولكن بعد هذا بقليل نجد الوضع بينهما قد تغير تغيراً تامًّا إلى درجة أن كلا منهما يحاول القضاء على الآخر . ولما فشل السلطان سليمان فى تحقيق غرضه عند الأفلحيين التجأ إلى الأمير غانم . فأكرم مثواه وجيشه الجيوش على أخيه السلطان الخطاب فأغار على الجريب وأصابها بأضرار جسيمة ولكنه لم يتمكن من استرجاعها. وفى أثناء هذه الغارات أسر الأمير غانم ولد السلطان الخطاب وقد أشار إليه السلطان

---

(١) ديوان سليمان ص ٦٣ .
(٢) ديوانه ص ٢٦ .
(٣) القسم الثانى ١٦/٢٠ – ٢١ .

الخطاب فى القصيدة الثانية من القسم الثانى . ولا توجد فى ديوان السلطان الخطاب قصائد فى الهجاء غير قصيدتين[١] فى هجاء الأمير غانم . يتهم السلطان الخطاب الأمير غانم فى كلتا القصيدتين بالغدر والخيانة ونقضه العهود والوعود التى قطعها له . وإليك على سبيل المثال قوله :

يا غادِرا مُذْ كان لا فى هذه ... قُلْ لى بأَيّة ذمّةٍ لم تغدرِ
أَرأَيتَ خطَّك لى وذمّتك التى ... قُطِعَتْ من الثوب الحرير الأَحمر[٢]

وقال فى القصيدة البائية :

ولو انَّه نقض العهودَ وجاء عن ... طيبٍ بنقض عهوده لم يُنْسب
لكنْ أَتانى غِرَّةً وعقوده ... بيدى فِعالَ الغادرِ المُتَعيِّبِ[٣]

نستطيع أن نفسر هذا التغير المفاجئ فى علاقاتهما إذا ألقى النظر على البيئة السياسية السائدة آنذاك . فقدت الدولة الصليحية نفوذها من شمال اليمن بعد وفاة السلطان أبى حمير سبأ بن أحمد . وبعد وفاة الأمير المفضّل بن أبى البركات سنة أربع وخمسمائة بدأ نفوذها يتقلص من المناطق الجنوبية أيضاً . لذلك طلبت السيدة الملكة الحرّة مساعدة الخليفة الفاطمى فى القاهرة فبادر الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فى سنة ثلاث عشر وخمسمائة بإرسال الأمير الموفق على بن إبراهيم بن نجيب الدولة إلى بلاد اليمن ليقوم بمساعدة الدولة الصليحية فبجهود ابن نجيب الدولة عاد الأمن واستقرّت الأمور وتحسن مركز الدولة الصليحية فى خلال سنتين . وبعد وفاة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى سنة خمس عشرة وخمسمائة أمده الوزير المأمون البطائحى بالمال والرجال فسير إليه أربعمائة قوس أرمنى وسبعمائة أسود[٤] .

لذلك ليس من المستبعد أن الأمير غانم تخوف من نشاط ابن نجيب الدولة

---

(١) وهما القصيدة الثانية والثالثة فى القسم الثانى .
(٢) ٤/٢ — ٥ .
(٣) ١٣/٤ — ١٤ .
(٤) كما سبق ذكره فى الفصل الماضى .

ونجاحه فى استرجاع نفوذ الدولة الصليحية ورأى فى السلطان الخطاب الذى كان يدين بالطاعة للدولة الصليحية الخطر على إمارته . والأمير غانم كان يدين بالطاعة للدولة النجاحية بدفع الإتاوة السنوية[١] . وبسبب البعد من زبيد كان يتمتع بالحرية الكاملة داخل إمارته . فرأى من مصلحة إمارته أن لا ينتشر نفوذ الدولة الصليحية فى هذه المناطق الشمالية وبالتالى سحب تأييده للسلطان الخطاب وأمده لسليمان كى يعود إلى حكم الجرّيب ، ولكنه لم ينجح فى هذه المحاولة .

وقد أشار السلطان الخطاب إلى هذا السبب إشارة عابرة عند وصف غارات الأمير غانم والأضرار التى أصابته فى قصيدة المدح للحرّة الملكة يقول :

وأُحْرِقَ دارى وَاسْتُبِيحَتْ مَحارمى ... وأَضحتْ بلادى وَهْىَ سوداءُ بلْقع
على خُطَطٍ منهن كَوْنى مُعَظَّما ... ببيضَةِ عِزٍّ منك لا تتصدّعُ
ومنها التزامى بالهُدَى وتعلّقى ... بحبلٍ متينٍ منك لا يتقطّعُ[٢]

توجد فى ديوان السلطان سليمان ستّ قصائد فى مدح الأمير غانم[٣] . وفى قصيدة يردّ على قصيدة أخيه السلطان الخطاب حيث طعنه فى نسبه فقال :

وليس يُلام الصبّ فى نصح عترةٍ ... على حدّه إنْ لام فى ذاك لائمُ
ومن مثل أولاد النبىّ وحيدر ... غيوث بنى الدنيا ليوث الضراغم
أئمة حقٍّ فاضلون همُ لنا ... إلى الله فى يوم الحساب سلالم[٤]

وفى القصيدة الميمية يقول :

أمّا الأمير فما أبقى هجاك له ... حسباً صحيحاً جهارًا غير منكتم[٥]

---

(١) قد سبقت الإشارة إليها عند حديثنا عن البيئة السياسية فى الفصل الأول .
(٢) القسم الثانى ٥/٢٢ – ٢٤ .
(٣) ديوانه ص ١٠ – ١١ – ٤٠ – ٤١ ، ٥٥ – ٥٧ ، ٥٧ – ٥٨ ، ٥٨ – ٥٩ ، ٦٠–٦١ .
(٤) ديوانه ص ٥٥ – ٥٦ .
(٥) ديوانه ص ٦٥ .

السلطان الخطّاب والعكيون

قبل أن نسهل الحديث بعلاقات السلطان الخطاب مع هذه القبيلة ، نودّ أن نقدّم موجزاً تاريخيًّا عنها ليكون لدينا إلمام عن الأوضاع القائمة .

العكّ قبيلة معروفة تقطن تهامة اليمن وتسمّى تلك البلاد بمخلاف عكّ . ويقول البكرى[١] فى سبب تسميتها قيل أول من نزلها عكّ بن عدنان فسميت به وقيل ، سمّيت عكا لشدّة حرّها[٢] : كذلك اختلف النسابون فى نسبها . يقول الفريق الأول إنها عدنانية من أولاد عكّ بن عدنان[٣] .

ويفسر صاحب طرفة الأصحاب[٤] سبب كثرة قبائل عكّ باليمن بأن عكا تزوّج بنت أشعر ، فأولد فيهم . فكانت الدار واحدة لذلك السبب . أما الفريق الثانى[٥] فذهب إلى القول بأنها قحطانية من أولاد عكّ بن عدنان بن عبد الله ابن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[٦] . ويقول صاحب شمس العلوم إن سبب انتسابها فى معد أن غسان وقت خروج الأزد من مأرب نزلوا تهامة و بها عك فأقاموا بها . فلما رأت عكّ غلبة الأزد على أجود مناطقها غمّها ذلك . فنشبت الحرب بين الأزد وعكّ . وقتلت غسان عكا قتلا زريعاً وأجلتها عن كثير من أوطانها . فمن ثم انتفت عك من اليمن وانتسبت فى معد[٧] .

---

(١) البكرى / عك ، كذلك معجم البلدان / عك ، الاشتقاق ص ٤٨٩ .

(٢) ل / عك .

(٣) الاشتقاق ص ٤٨٩ ، صبح / عك ، جمهرة ابن حزم ص ٣٠٩ ، طرفة الأصحاب ص ١٤ كتاب الأنساب للسمعانى ص ٣٩٧ .

(٤) طرفة الأصحاب ص ٦٤ — ٦٦ .

(٥) جمهرة لابن الكلبى ص ٢٣ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦٦ ، شمس العلوم / عك ق / عك ، نهاية الأرب للقلقشندى ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

(٦) أطلب شجرة النسيب فى ملحق رقم ٣ .

(٧) شمس العلوم / عك . قد ذكر البلاذرى هذه الحرب فى كتابه « فتوح البلدان » ص ١٦ .

ولعك ولدان: الشاهد وعبد الله . وقبائل الشاهد قبيلتان : غافق وساعدة ولهما بطون . كذلك قبائل عبد الله قبيلتان : عبس وبولان ، ولهما بطون[١] . وكانت هذه البطون تقطن تهامة اليمن فى الأماكن التالية :

١ — وادى مَوْر ومدينتها موْر . . . . . فيها بطن بولان[٢]

٢ — وادى سُرْدُد ومدينتها مهجم . . . . . فى أعلاها خولان وفى أسفلها وشمالها عكّ من بولان وعبس[٣].

٣ — وادى سهام ومدينتها كدراء . . . . . يسكنها خليط من عكّ والأشعر وباديتها جميعاً من عكّ[٤].

٤ — وادى ذؤال . . . . . خليط من عكّ والأشعر[٥] .

ويبدو مما تقدم من ذكر الأمكنة أنهم فى الغالب كانوا يشاركون أوطانهم مع الأشاعرة . وكان زواج عكّ ببنت الأشعر ، كما ذكره صاحب طرفة الأصحاب سبباً فى توطيد أواصر الصداقة بينهما . لذلك نلاحظ هاتين القبيلتين معاً فى عمل مشترك عند أكثر الوقائع . كانوا أول من ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة النبى « صلع »[٦]. وكانوا مع معاوية بن أبى سفيان فى وقعة صفين وهم الذين دافعوا عنه عند زحف الأشتر إليه[٧]. ثم فى أثناء محاصرة مكة اشترك العكيون فى إحراق الكعبة[٨].

وفى أيام الخليفة المأمون ظهر باليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب . وكان يدعو إلى الإمام محمد بن إبراهيم

---

(١) طرفة الأصحاب ص ١٧ ، معجم قبائل العرب / عك Genealogische tabellen von Wustenfeld A.10

(٢) صفة ص ٥٤ - ١١٩ . طرفة الأصحاب ص ٦٤ — ٦٦ .

(٣) المصدران السابقان ، و E.I.°„'AKK

(٤) صفة ص ٥٤ ، ١١٩ E.I.°„'AKK

(٥) عمارة / كى ص ٧٧ .

(٦) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٥٣٣ .

(٧) المصدر السابق ج ٤ ص ١٦ .

(٨) EI-AKK

طباطبا الذى ظهر بالكوفة[١] . وفى سنة اثنتين ومائتين ثار العكيون والأشاعرة أيضاً على عامل اليمن من جانب الخليفة العباسى[٢] . فتنبه المأمون إلى نشاط العلويين هذا وإلى ثورة قبائل تهامة تلك . لذلك رأى ضرورة تدعيم الحكم العباسى فى اليمن واختار الأمير محمد من آل زياد لتلك المهمة وجهّز له الجيش فدخل الأمير محمد ابن زياد اليمن سنة ثلاث ومائتين فقمع الثورة وفتح تهامة بعد حروب . ولما استقرت الأمور اختط مدينة زبيد وجعلها عاصمة الدولة التى عرفت فيما بعد باسم الدولة الزيادية[٣] وهى أول دولة مستقلة داخل اليمن . وتولت الحكم من سنة ثلاث ومائتين إلى سنة تسع وأربعمائة .

وفى سنة اثنتى عشرة وأربعمائة استولى نجاح من عبيد آل زياد على البلاد . وهكذا قامت الدولة النجاحية التى تحدّثنا عنها فى الفصل الذى سبق . وكانت تهامة التى تقع فيها بلاد العكيين تحت سلطة الدولة النجاحية أيام شاعرنا السلطان الخطاب .. وكان الخطاب يتمتع بتأييد هذه القبيلة التى كانت تسكن وادى مَوْر ، وأول بلاد عكّ من هذا الصقع هو جبل جُرابى الداخل بين جبال السراة لحمدان وحِمْيَر[٤]. وقد أشار السلطان سليمان إلى مساعدة العكيين هذه لأخيه الخطاب ضدّه وقال :

ورجالُ عكٍّ أمس كانوا أصلتوا ... معه السيوفَ وكلَّ أسمرَ عاسِلِ
ودعاهمُ فى فتنةٍ فأجابهم ... منهم لحربى كلُّ ليثٍ باسِلِ
وأغار فى أوسٍ علىَّ بجمعهم ... من فارِسٍ بَطَلٍ أشمَّ وراجِلِ[٥]

ويقول فى القصيدة الميمية :

وعكٌّ أعطتك فى حربى مَقادتَها ... بغير ذنبٍ إليها لى ولا جرَمِ[٦]

---

(١) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٨١ ، والطب المقتطف ص ٥٣ .
(٢) عمارة / كاى ص ٢ — ٣ .
(٣) عمارة / كاى ص ٣ ، تاريخ المستبصر ج ١ ص ٦٧ .
(٤) صفة ص ١١٢ — ١١٣ .
(٥) ديوان سليمان ص ٣٢ .
(٦) ديوانه ص ٦٥ ، وفى الأصل : جرى .

ولكن هذه العلاقات بينهما لم تستمرّ طويلا بعد أن أصبح الخطاب سلطاناً ، بل قامت الحروب بينهما وقد ذكر السلطان الخطاب وقعة الحماء التى وقعت مع هذه القبيلة فى القصيدة السابعة من القسم الثانى . وفى القصيدتين اللتين قالهما فى مدح العكيين[١] نلاحظ أنه يشيد بأعمالهم لما أشعلوا من الثورات والفتن ضدّ الدولة النجاحية ، ويحثهم من جديد على الثورة ضدّ هذه الدولة . وقد نظم القصيدة الميمية فى تأنيبهم وتحشيدهم وتحريضهم على الدولة النجاحية[٢] .

السلطان الخطّاب والدولة النجاحية

كانت الدولتان الصليحية والنجاحية متخاصمتين أشدّ الخصومة كما سبق الكلام عنهما فى الفصل السابق عن البيئة السياسية ، وكان السلطان الخطاب يدين بالطاعة للدولة الصليحية . ثم كان اعتناقه المذهب الفاطمى وقرابته بالسيدة الملكة الحرّة أروى بنت أحمد الصليحية باعتباره أخاها من الرضاعة قد قرّبه إلى هذه الدولة أشدّ القرابة . لذلك كانت كراهيته وخصومته للدولة النجاحية المناوئة للدولة الصليحية نتيجة طبيعية . وكانت الخصومة سياسيًّا ومذهبيًّا . ثم لجوء أخيه سليمان إلى تلك الدولة النجاحية بعد أن فشل من تحقيق غرضه عند الأمير غانم بن يحيى السليمانى ، أضاف إلى هذا الخصومة الشخصية وأشعل نار الحرب .

يظهر من شعر السلطان سليمان أنه التجأ إلى هذه الدولة بزبيد بعد سنة سبع عشرة وخمسمائة أى فى أيام الوزير منّ الله الفاتكى . وقد مدح سليمان هذا الوزير بثلاث قصائد[٣] ثم مدح الوزير مفلحاً الفاتكى[٤] الذى تولى الوزارة بعد منّ الله الفاتكى بخمس قصائد . ومدح ابنه المنصور بن مفلح الفاتكى بثلاث قصائد[٥] . يقول

---

(١) هما القصيدتان الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون فى القسم الثانى .

(٢) وهى القصيدة الأولى فى القسم الثانى .

(٣) ديوانه ص ٧ — ٩ ، ١٢ — ١٣ ، ١٣ — ١٤ .

(٤) ديوانه ص ١ — ٣ ، ١٤ — ١٥ ، ١٥ — ١٧ ، ٥٢ — ٥٣ ، — ٥٤ .

(٥) ديوانه ص ١٧ — ١٨ ، ١٨ — ١٩ ، ٢٠ — ٢١ .

فى القصيدة التى يمدح بها مفلحاً الفاتكى :

أحببْتُكم فربطتُ نفسى فيكمُ حُبًّا فليس يشوقها أوطانُها
ورضيتُكم أهلا ونعم الأهل لا قوم الذين نأتْ بهم بلدانُها
وجعلتُكم قومى وقومى فى الورى من يعربٍ حقًّا ومن همدانها[1]

كذلك مدح الأمير فاتك بن منصور بقصيدة[2] والقائد أحمد بن مسعود الجزرى بقصيدتين[3] .

وتقول رواية عيون الأخبار إنه نزل إلى آل نجاح بزبيد وإلى قوّادهم الفواتك من الله ومفلح ومنصور بن مفلح وإسحاق بن مرزوق وأبى محمد سرور وأحمد ابن مسعود، فجيّش مستنصراً بهم على أخيه فاستغار بغارات عليه . ولكنه لم يتمكن من استرجاع الجُرَيب لأن السلطان الخطاب كان يتمتع بتأييد الدولة الصليحية . وأقام سليمان بزبيد فى ضيافة هذه الدولة مدّة طويلة ، عشرة أعوام تقريباً حتى قتله أخوه السلطان الخطاب .

فنجد السلطان الخطاب يحرض ويحمل القبائل القاطنة داخل حدود تلك الدولة على الثورة والفتنة ضدّها . فهو يحرّض القبائل العكية وغيرها العربية على تلك الدولة بروح العربية القحطانية ، لأن آل نجاح كانوا من بلاد الحبشة . وإليك من هذه الصور على سبيل المثال قوله : من القصيدة الميمية التى يحرّض بها العكيين :

يا صفوة العُرْب الذين نَمَتْ بهم فى المجد خيرُ معارقٍ وأروم
إنّى لأذكركم وأذكر حالَكم فأبيتُ حِلْفَ صبابةٍ وغموم
ما العُذْرُ ما إنْ لا تزال عبيدُكم أمراءَكم هذا من التسخيم[4]

---

(١) ديوان سليمان ص ٣ ، وفى البيت الأخير إقواء .
(٢) ديوانه ص ٥١ — ٥٢ .
(٣) ديوانه ص ٥٤ ، ٥٤ — ٥٥ .
(٤) القسم الثانى ١/٢١ — ٢٣ .

ويقول فى القصيدة الميمية الأخرى يحشد العرب على قتال الحبشة يقول :

هو موسمُ الحَسَرات للحُرِّ الذى ... ريحُ الأَبيّة فيه غيرُ نسيمِ
ومقامُ أنْ يستعذبَ المَرْءُ الرَّدَى ... شُرْبا بمُتْأَقِ كأْسِهِ المسمومِ
هل بعد أَنْ أضحتْ مقاولُ يعربٍ ... تبعاً لعبدٍ تافهٍ مخرومِ[1]

ثم يحرّض السلطان الخطاب الشرفاء السليمانيين الذين يدينون بالطاعة للدولة النجاحية يحرّضهم على هذه الدولة ويقول :

فلا خيرَ فى عيش الذليل وأنّى ... أُجِلُّهمُ عن ذا المقال مقالا
بنو حَسَنٍ إن لم تثوروا وتنفُضوا ... غُبارًا عليكم قد أُهِيل فهالا
ولم يعزموها عزمةً حَسَنِيَّةً ... تعدّ حرام الإنتظار حلالا[2]

ولم يكتف السلطان الخطاب بهذا بل كان يستنجد ببنى هاشم أشراف مكة ضدّ الحبشة . وفى القصيدة الرائية يشتكى إليهم غارات الدولة النجاحية ويقول :

هل أتاكم فِعْلُ العبيد وما ... جاءوا إليه من الفعال النكيرِ[3]

وبعد وصف هذه الغارة وانتصاره عليهم يبلغهم التحية والسلام ثم يقول :

كيف تَرْضَوْنَ يا بنى العمّ عنّى ... بقُعودٍ من بعد هذى الأُمور
أنتمُ عُصْبَتى وكَهْفى وأنصا ... رى ولَوْذى وعِصْمَتى وظهيرى
فأجيبوا صوتى ولَبُّوا ندائى ... ليس فى خَذْلِكم لنا من عذيرِ[4]

---

(١) القسم الثانى ٩/٩ — ١١ .
(٢) القسم الثانى ٢٤/٣٠ — ٣٢ .
(٣) القسم الثانى ٢٢/٥ .
(٤) القسم الثانى ٢٢/١٦ — ١٨ .

السلطان الخطاب وأشراف مكة الهواشم

ترجع هذه الأسرة وأسرة الأشراف السليمانيين فى اليمن إلى أصل مشترك . وقد سبق أن تحدثنا عند حديثنا عن الأشراف السليمانيين كيف تغلب بنو هاشم على السليمانيين وطردوهم من مكة إلى اليمن[١] . لذلك كانت الخصومة قائمة بين هاتين الأسرتين ويظهر لنا أن السلطان الخطاب قد استغل هذه الخصومة لما غدر به الأمير غانم بن يحيى السليمانى وقام بالحرب ناصراً أخاه سليمان عليه . ويبدو من القصيدة اللامية فى مدح بنى هاشم أنهم ساعدوا السلطان الخطاب فى الحرب ثم يستنجد بهم على الأمير غانم السليمانى ويقول :

ولا بدّها من أنْ تزور مُغِيرَةً رُبا الساعد المحلال غير هِزالِ
وتُوفِى نُذورى والنذور وفاؤها على الحرّ فَرْضٌ لم يكن بهُزال[٢]

وفى القصيدة الرائية[٣] يشكو إليهم فعل العبيد أى الدولة النجاحية ويستنصر بهم كما قلنا فى علاقات السلطان الخطاب مع تلك الدولة .

ولكن يبدو من القصيدة الحادية عشرة الناقصة من أوّلها فى القسم الثانى أن العلاقات بينهما قد تدهورت وخاصّة مع الأمير جعفر يقول :

وما أنصفتنى هاشمٌ ومَذاقَتى لها دون طعم النحل حين يُذاقُ
لهم كلّ يومٍ أسهمٌ فى عداوَتى تُراشُ علىٰ حبى لهم وتُفاقُ
أجعفرُ هل كان التهدّد عُنْوَةً لنُعْماىَ لمّا أنْ مَنَنْتُ صَداقُ[٤]

والمصادر التاريخية التى تناولناها فى هذا البحث لا تمدنا بأية معلومات عن

---

(١) اطلب البيئة السياسية فى الفصل الأول .
(٢) القسم الثانى ٢١/٣٠ – ٣١ .
(٣) وهى القصيدة الثانية والعشرون .
(٤) ١١/٦ ، ٩ – ١٠

علاقاتهم مع اليمن . ولعل السبب فى تدهور العلاقات هو أن الأمير هاشم الذى تولى الحكم فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة أقام الخطبة للخليفة العباسى ، كما حكاه ابن خلدون[١] . ثم أضاف أن الملكة الحرّة صاحبة اليمن بعثت لأمير مكة تتوعده على قطع خطبة الحافظ لدين الله الفاطمى .

السلطان الخطّاب والدولة الصليحية

قد سبق أن قلنا فى حديثنا عن توتر العلاقات بين الأخوين سليمان والخطاب أن السياسة لعبت دوراً خطيراً فى هذا الصراع عندما اعتنق الخطاب المذهب الفاطمى على يد الداعى الذؤيب بن موسى الوادعى ، لقى الخطاب كل التأييد والتشجيع من جانب هذه الدولة . وكان الخطاب كما رواه مؤرّخ الدعوة أخا الملكة الحرّة من الرضاعة[٢] . ولما عين الداعى الذؤيب بن موسى الوادعى داعياً لكى يخلف الداعى يحيى بن لمك فى رياسة الدعوة ، عين الداعى الذؤيب بن موسى تلميذه السلطان الخطاب مؤازراً ومعيناً له . وكان ذلك قبل سنة عشرين وخمسمائة . كل هذه الأسباب قد قرّبته بالدولة الصليحية كتقرب اليد من الفم .

وقد نجح السلطان الخطاب بمساعدة الدولة الصليحية فى الصراع مع أخيه الأكبر وتمكن من تثبيت أقدامه فى الجرَيب برغم الغارات التى شنها أخوه . ومدح السلطان الخطاب الملكة الحرّة السيدة أروى بقصائد رائعة اعترافاً بالمعروف ، ولأنها

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٠٤ .

(٢) عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٢٢ . حسب هذه الرواية لا يزيد الفرق بين عمر السلطان الخطاب والسيدة الحرة على عشرة أعوام فى الغالب . وكانت ولادة السيدة الحرة سنة أربعين وأربعمائة . فلذلك لو تأخذ الفرق الأقصى وهو عشر سنين فيكون مولد الخطاب سنة خمسين وأربعمائة . ولكننا نرجح مولده بعد سنة ثمانين وأربعمائة . ثم رواية عيون تشير إلى العلاقات العائلية بين أسرة الملكة الحرة وأسرة الخطاب . ولكننا لم نعثر على أى دليل يشير إلى اتصلات العائلية بينهما . فيبدو لنا أن إدريس عماد الدين يقصد بها الأخوة فى الدعوة .

كانت حجة الإمام في جزيرة اليمن[١]. وتوجد في ديوانه القصيدة الوحيدة في الرثاء وهي قصيدة شهيرة يرثي بها السيدة الملكة الحرّة أروى[٢] .

الطور الرابع

السلطان الخطّاب والدعوة الفاطمية

قد سبق أن أشرنا إلى اعتناق الخطاب الدعوة الفاطمية على يد الداعي الذؤيب ابن موسى الوادعي ، وتحمسه الشديد في إظهار هذه الدعوة وإعلاء كلمتها حينما أصبح سلطان بلاد الحجور سنة أربع عشرة وخمسمائة . وقد عينه الداعي الذؤيب مؤازراً ومعيناً له عندما عين هو رئيساً في الدعوة كخليفة للداعي يحيى بن لمك الحمادي وذلك قبل سنة عشرين وخمسمائة[٣] .

ولما تولى الأمير عبد المجيد الخلافة والإمامة باسم الخليفة الحافظ لدين الله بعد اغتيال الخليفة الآمر بأحكام الله ، أعانت الملكة الحرّة السيدة أروى ولاءها للإمام المستور أبي القاسم الطيب بن الإمام الآمر . وهكذا انفصلت الدعوة اليمنية باسم الدعوة الطيبية عن مركزها الأم في القاهرة . فلذلك كاتب الخليفة الحافظ الملكة الحرّة وراسلها للتسليم بإمامته . فلما عجز عن استمالتها إلى جانبه أرسل القاضي الرشيد داعياً له في اليمن . فاستطاع استمالة بعض السلاطين بالوعود وبالمال ، ومنهم بني زُرَيع بعدن . وكان القائم منهم في ذلك الوقت سبأ بن أبي السعود ، فنصبه داعياً له في اليمن .

وأقامت الملكة الحرّة السيدة أروى بعد استقلال الدعوة اليمنية الداعي الذؤيب ابن موسى الوادعي ، داعياً مطلقاً في الدعوة والسلطان الخطاب مأذوناً له ليقوما

---

(١) تحفة القلوب ص ١٢٦ .

(٢) القصائد الخامسة والسادسة والسابعة والثامنة في القسم الثاني والقصيدة الثانية عشرة في القسم الأول .

(٣) القصيدة الثامنة في القسم الأول .

بتدبير أمور الدعوة وشئونها . وكان من حقها بصفتها حجة الإمام فى جزيرة اليمن أن تقيم من يقوم بأمر الدعوة فى جزيرتها[١] .

وقد لعبت هذه الشخصيات الثلاث دوراً رئيسيًّا فى سبيل قيام هذه الدعوة الطيبية التى بقيت إلى يومنا هذا . يقول مؤرخ الدعوة فى هذا السياق :

« وما زالت الحرّة الملكة تسوس سلاطين اليمن وتدعو إلى إمامها الطيب أبى القاسم أمير المؤمنين غير مكترثة بمن خالف من أهل الزمن . والداعى الذؤيب بن موسى الوادعى والخطاب بن الحسن بن أبى الحفاظ قائمان معها بذلك حقّ القيام ملتزمان بما ألزمتهما خير التزام »[٢].

ويقول هذا المؤرخ فى كتابه عيون الأخبار[٣] مشيراً إلى الداعى الذؤيب ابن موسى الوادعى والخطاب يقول : « فقاما بالدعوة إلى الإمام الطيب أبى القاسم عليه السلام فى حياتها (أى الملكة الحرّة) وبعد وفاتها . ورفعا قواعد الدعوة وأظهرا آياتها » .

فحمل السلطان الخطاب فى هذه الفترة الأخيرة من حياته مسئوليات جديدة بصفة المنصب الدينى الذى تولاه وكانت رتبته تلى رتبة الداعى المطلق فى الدعوة . يقول الداعى إدريس عماد الدين فى كتابه عيون الأخبار : « وكانت له منزلة جليلة وفضل وعلم وعدل وورع وزهد وعقل ، وهو ثانى الداعى الذؤيب بن موسى الوادعى فى الدعوة وهما لدعاة اليمن فى الدعوة الطيبية القدوة وهما فى العلم منار »[٤]. وقد انتشرت الدعوة الحافظية فى بعض أنحاء اليمن بجهود القاضى الرشيد . فلذلك دخلت الدعوة الطيبية فى الصراع مع تلك الدعوة[٥]. فحارب السلطان الخطاب الدعوة الحافظية ومنعها من التسرّب إلى بلاده .

---

(١) عيون الأخبار ج ٧ ص ١٩١ — ٢٠٤ ، راجع الصليحيين ص ١٨٢ — ١٩٢ .

(٢) نزهة الأفكار ج ١ ص ٧٣ .

(٣) عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٣٠ .

(٤) المصدر السابق ج ٧ ص ٢٢٢ .

(٥) المصدر نفسه ج ٧ ص ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ .

مقتل سليمان

وجدنا فى ديوان السلطان سليمان ست قصائد قد قالها مخاطباً أخاه السلطان الخطاب ، بعد أن طرده الخطاب من الجُرَيب [١] . ويكرّر فى كل هذه القصائد المعروف والجميل اللذين عملهما معه فى تربيته وتأديبه . ثم يتهمه بالغدر والخيانة وإليك بعض الأمثلة من هذه الصور [٢] :

على أنّنى أكرمتُه ورعيتُــه ... وبَوّأتُه دارًا مبوّأها سَهْلُ
وقلتُ أخى من والدىَّ كليهما [٣] ... وما خُبْثُ فَرْعٍ قد زكا تحته أَصْلُ
ولى فيه إجمالٌ وأيدٍ غمامُهــا ... بصَيِّبِ إحسانى إليه لها هَطْلُ
وهل يُنكر الخطابُ فَضْلى وأنعمى ... عليه قديماً وَهْوَ يومئذٍ طِفْلُ
وأنزلتُه فى رتبــة الولد الذى ... غدا واحدًا لا يُرتجى بعده نَسْلُ
ولم أعتقد فيه الذى فيه من أذًى ... ولا أنه للضّدّ فى قوسه نَبْــلُ
ولو أُمكنَ الخطابُ منّىَ مِثْلَما ... تمكّنتُ منه عَضَّ مَفْرَقِ النَّصْلُ
وما سَرَّنى واللهِ يوماً ذهابُه ... وكم سَرَّه لو قد تناولنى قَتلُ
ولولا اعتقادى أنه لا يخوننى ... وأمنى لم تعلق برِجْلى له حَبْلُ

ثم يقول [٤] :

وَرَعَوْا بذلك حقَّ من لم يَرْعَ لى ... فَضْلى عليه ومِنَّتى وجمائلى [٥]

---

(١) ديوانه ص ٢٥ — ٢٧، ٤٣ — ٤٥، ٤٥ — ٤٧، ٦٢ — ٦٤، ٦٥ — ٦٦ ؛ ٦٦ — ٦٨ .
(٢) ديوانه ص ٤٣ — ٤٤ . والقصيدة من البحر الطويل .
(٣) فى الأصل : كلاهما .
(٤) ديوانه ص ٣١ ، والقصيدة من البحر الكامل .
(٥) فى الأصل : حمائل .

وكفلتهُ طِفْلا وقد أبصرتُمُ كيف استحال طِباعُه للكافِلِ
هل منكمُ من مُنْكِرٍ فِعْلى له رُدُّوا جوابَ المستفيد السائلِ
لو كان ذا عقلٍ لأَثْمَرَ عنده زرعى وجازانى جزاءَ العاقلِ
لكنَّــه ما قطَّ جازَى مُحْسِنا إلاَّ بغَدرٍ ظاهرٍ وغوائلِ

ولم نجد فى ديوان السلطان الخطاب أية قصيدة ردًّا على هذه القصائد . ثم قتل السلطان الخطاب أخاه سليمان غيلة . ويقول صاحب عيون الأخبار فى هذا الصدد : « فبلغ السلطان الخطاب غرضه واستمكن من سليمان . فقتله غيلة رماه بحربة تسمّى المريحة وقبره بموضع يسمى المربح من الطرف» [١] . وقد قال سليمان قصيدة قبل مقتله يقول فيها [٢] :

فمن مُبْلِغٌ [٣] عنّى بكيلا وحاشدا بأَن قِتالَ الماكِرين جهادُ
بعدتُ من الخطاب بُعْدًا ولم يكن لقُرْبَى إليه مرجعٌ ومعادُ
فقَرَّبَنى منه شيوخٌ أَثِقْتُهم وما كان فى قربى إليه سدادُ
فإنْ حضرتْ منّى الوفاةُ فإنَّهم وفاقى وقربى للوفاة أَرادوا [٤]
وما أَسَنى فيما أَتاه وإنَّمــا أَسفتُ كما لَحُّوا علىَّ وزادوا [٥]

حدثت حادثة القتل هذه سنة ثلاثين وخمسمائة تقريباً . وقد استنبطنا هذا التاريخ من وجود ثلاث قصائد فى مدح المنصور بن مفلح الفاتكى الذى تولى قيادة جيش أبيه لمواصلة الحرب ضدّ القائد سرور ، بعد وفاة أبيه مفلح الفاتكى سنة تسع وعشرين وخمسمائة [٦] . ثم قتل هذا القائد بعد بضعة أشهر فقط . ولا توجد فى ديوانه أية قصيدة فى مدح الوزراء أو القوّاد الذين تولوا الحكم بعد مفلح الفاتكى لذلك نرجح سنة ثلاثين وخمسمائة لتلك الحادثة .

---

(١) عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٢٣ .
(٢) ديوان سليمان ص ٧٤ . القصيدة من البحر الطويل .
(٣) فى الأصل : مبلغا .
(٤) فى الأصل : أراد .
(٥) فى الأصل : زاد .
(٦) عمارة / كنى ص ٨٤ ، كفاية ص ٧٨ (الف) بغية المستفيد ص ١٧ .

أولاده

لا تذكر المصادر التى بين أيدينا هل كان للسلطان الخطاب أولاد أم لا ، ولكننا نستنبط من شعره أن له أولاداً . يقول فى القصيدة الميمية :

وعادَ بعدى ، وربّى ، خيرُ ذُرية والمالُ والخيلُ والأَسيافُ والخَدَمُ

ويقول فى قصيدة أخرى :

وفارقتُ أولادى وأهلى وما حَوَتْ عليه يدى من فضّةٍ ونُضارِ[٢]

وقال القصيدة الثانية من القسم الثانى فى هجاء الأمير غانم حين أسر ولده ، ولكننا لا نعرف عن أسمائهم وعددهم ، ومن الذى تولى الحكم بعده وما كان مصير إمارته الحجور .

سيرته

قضى السلطان الخطاب الجزء الأكبر من حياته ، كما درسنا من خلال أطوار حياته المختلفة فى حروب دامية من أجل مذهبه وعقيدته . وقد اختلف فى أول الأمر مع أخيه الأكبر السلطان سليمان لهذا السبب الذى أدّى إلى نشوب الحروب بينهما التى استمرّت عدّة سنوات . ولم ينته الأمر إلى هنا بل استفحل فيما بعد لما تغلب الخطاب على أخيه وطرده من البلاد . فاستنصر سليمان بالأفلحيين والسليمانيين والنجاحيين وشنّ الغارات على الجريب حتى قتل بيد الخطاب .

وعرف السلطان الخطاب بفطنة ذهنه وحذق عقله فى حلّ بعض القضايا : يقول الداعى إدريس عماد الدين إن عمارة اليمنى أورد بعض قضايا السلطان الخطاب

---

(١) القسم الأول ٢٠/٢٦ .

(٢) القسم الثانى ٦/٢٢ .

العجيبة فى كتابه المعروف « بأنموذج ملوك اليمن ومما يوصف من أحكام السلطان»[١]. يقول عمارة : « كان السلطان الخطاب بن الحسن صاحب مدينة الجريب يشرف من طاق لينظر الداخلين إلى سوق الجريب . فجاء رجل وهو يصيح : أنا بالله وبمولانا الخطاب . فقال له ، ما شأنك ؟ فقال : إنى بعت ثوراً لى لا أملك غيره وأردت أن آخذ بثمنه ما يقوت أهلى . وذكر له عدد دراهمه ، وقال إنى صررتها فى ثوبى وقطع طراز الثوب وأخذت منه . قال أتعلم خصمك . قال : لا أعلمه . قال : فما الذى أعمل لك ؟ ثم توقّف السلطان الخطاب فى الطاق ، وأهل السوق يمرّون به راجعين عنه حتى نظر إلى رجل قد رجع من السوق وهو يحمل وعاء سمن . فأمر بإحضاره إليه . فأحضر وأمرهم أن يصبوا سمنه . فصبوه ووجدوا الدراهم فيه كما عدّها صاحبها ووصفها . فأعطاها الرجل الذى هى له . فقيل له بماذا علمت أن صاحب السمن هو الذى أخذها وكيف اختبرته من بين أهل السوق ؟ قال : إنى وقفت أنظر إلى من دخل السوق وقد أنفق بضاعته ورجع . ونظرت إلى هذا الرجل دخل يحمل السمن وخرج به كما دخل . فعلمت أن ذلك لشأن . فعجب القوم لذهنه وفطنته وما اهتدى إليه فى قضيته »[٢] . كذلك أورد صاحب عيون الأخبار قضية أخرى مثل الأولى عن عمارة اليمنى للخطاب[٣] .

كان الخطاب زاهداً ورعاً . يقول صاحب نزهة الأفكار[٤] : « كان الزهد سيرته وطاعة الله تعالى ظاهره وسريرته والعمل بالصالحات دأبه والأخلاق المحمودة آدابه » . والمتأمل فى حياته بعيداً عن التعصّب له يلاحظ أنها كانت حياة كفاح مرير من أجل الدعوة الفاطمية وفى سبيل تحقيق هدفه النبيل قد ضحى بأخويه وحارب العدوّ طوال حياته حتى لبى نداء ربه .

---

(١) لم يشر الأستاذ بروكلمان إلى مؤلف عمارة اليمنى بهذا العنوان

G.A.L. vol. I, p. 407, suppl. vol. I, p. 570.

(٢) انظر عيون الأخبار ج ٧ ص ٢٢٤ .

(٣) اطلب المرجع السابق ج ٧ ص ٢٢٤ .

(٤) نزهة الأفكار ج ١ ص ٨٧ .

وقد اجتمع فى السلطان الخطاب عدّة شخصيات ، كان فارساً من فرسان العرب ، عالماً من علماء الدعوة الفاطمية ، شاعراً من شعراء قحطان ، وسلطاناً من سلاطين اليمن .

وفاته

قد ضمّ السلطان الخطاب أولاد أخيه سليمان إليه بعد أن تغلب عليه وطرده من الجريب وآواهم وقام بأمرهم ورباهم . كأنه يريد أن يعوّض أخاه الأكبر بما قام به من تربيته وتأديبه له فى صغره . ولكن من كان يعرف أن الخطاب سيلقى مصرعه على أيديهم لأخذ ثأر أبيهم . وهكذا تمّ مأساة الأسرة التى قتل فيها ثلاثة إخوة وأخت واحدة . يقول صاحب نزهة الأفكار فى هذا السياق : « فلما كبروا (أى أولاد سليمان) أطغاهم الأشرار وذكروهم مقتل أبيهم سليمان وإدراك الثأر ففتكوا به على غرّة وقتلوه بمضجعه ، فمات شهيداً »[1] . وكانت وفاته فى شهر صفر سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة[2] .

---

(١) نزهة الأفكار ج ١ ص ٨٨ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٩٠ .